الباب الخامس

في استقراء أكثر ما في الكتاب العزيز من الوقائع الجدلية وتخرجها على القواعد الاستدلالية على ترتيب السور والآيات، واستمدادي التوفيق من مبدع الموجودات وفاطر الأرض والسماوات.

فمن ذلك في:

سورة البقرة

١- قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، هذه مناظرة أو شبيه بصورة مناظرة حكاها الله عز وجل بين المؤمنين والمنافقين، وتقريرها أن المؤمنين قالوا للمنافقين: أنتم تفسدون في الأرض فاتركوا الفساد، فأجاب المنافقون بالمنع بأن قالوا: لا نسلم أننا مفسدون بل نحن مصلحون، وانقطعت المناظرة بين الفريقين ها هنا. فرد الله عز وجل على المنافقين وأكذبهم إكذابًا عنيفًا بأن حصر الفساد فيهم بقوله: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ)، ثم أرفد ذلك بتجهيلهم بأنهم لا يعلمون فسادهم ولا لهم به شعور.

٢- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، هي في معنى التي قبلها إذ وجه المناظرة فيها أن المؤمنين قالوا للمنافقين: إن الناس قد آمنوا فواجب عليكم موافقتهم في الإيمان بما آمنوا به، فأجاب المنافقون بالمنع وتقريره: لا نسلم أن موافقه من آمن تجب علينا؛ لأن الواجب علينا إنما هو موافقة العقلاء وذوي النهى والأحلام، وهؤلاء الذين آمنوا قوم سفهاء لا تجب علينا موافقتهم.

قلت: وقوة هذا الجواب قوة جواب تقسيمي تقديره: تجب علينا موافقة العقلاء أو موافقة السفهاء، الأول مسلم لكن أين العقلاء الذين نوافقهم؟ والثاني ممنوع لأن السفيه لا تجب متابعته، فرد الله عز وجل عليهم ذلك بأن حصر فيهم السفه ونفى عنهم العلم به

حيث قال: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] فكأنه أثبت لهم الجهل المركب من جهة أنهم سفهاء لا يعلمون الحق ولا يعلمون أنهم لا يعلمون.

٣- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١] هذا استدلال من الله عز وجل على استحقاقه للعبادة وحده وتنبيه للخلق على طريق الاستدلال على ذلك، وتقريره: أن الله عز وجل هو المستحق للتوحيد والعبادة؛ لأنه الخالق لكم ولسائر العالم ممن قبلكم، وكل من كان خالقًا فهو مستحق لعبادة مخلوقه له، والأولى مسلمة عند كفار العرب بدليل قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] [الزمر: ٣٨].

وأما الثانية فلأن الخالق مالك فكل مالك فهو مستحق لكسب مملوكه والعبادة والتوحد كسب للعبد فيكون المالك مستحقًّا له منه. فهذا الدليل ثابت بمقدمتيه لا جواب لهم عنه ولا طعن له مفيه لكنهم كانوا يقدحون في إخبار الرسول عن الله عز وجل بذلك فاستدل الله عز وجل على صدقه في إخباره بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فهو استدلال شرطي في صورة التعجيز والتحدي، وتقريره: لو كنتم أيها الكاف محقين في تكذيب الرسول لجئتم بمثل ما جاء به من المعجز الكتابي لكنكم لم تأتوا بذلك ولن تستطيعوه فإذن لستم محقين في تكذيبه فأنتم إذن المبطلون في تكذيبه وهو المحق فيما أخبركم به، إذ لا واسطة بين الصدق والكذب. ودل على هذا بقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا﴾ [البقرة: ٢٤] أي فأنتم مبطلون محجوجون فأرجعوا عن الباطل واتقوا النار التي أعدت لأمثالكم.

٤- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] الآية. هذه صورة جدال من الكفار وله سبب، وذلك أن الله عز وجل لما ضرب المثل بالذباب في سورة الحج، وبالعنكبوت في سورته، قال الكفار: إن الرب عظيم فلو كان هذا كلامه لما تكلم بهذه الحيوانات الخسيسة القدر لجلالة رتبته عن ذلك، فأجاب الله عز وجل عن هذا

السؤال بمنع انتفاء اللازم في الاستدلال، وتقريره: لا نسلم أن عدم ذكره لمثل هذه الحيوانات لازم لكون القرآن كلامه بل الله عز وجل لا يستحي في تحقيق الحق وإبطال الباطل من ضرب الأمثال بهذه الحيوانات وأمثالها حتى البعوضة فما فوقها في الصغر والكبر. ثم كأن الكفار اعترضوا على هذا الجواب، فقالوا: الله عز وجل قادر على ما أراد من تحقيق الحق وغيره بدون ضرب الأمثال بهذه الحيوانات المذكورة، وحينئذٍ يخلو ضرب الأمثال بها عن حكمة، وإلا فماذا أراد بها من الحكمة وما فائدتها؟ فأجاب الله عز وجل عن ذلك بمنع خلو ذكرها عن الحكمة بل له فائدة وهو أنه يضل به كثيرًا من الكفار المعارضين ويهدي به كثيرًا من المؤمنين المسلمين لما يبلغهم عن الله عز وجل على لسان رسوله عليه السلام، وهو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

٥- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠] تضمنت حكاية صورة مناظرة جرت بين الملائكة وربهم عز وجل، وتقريرها أن الملائكة قالوا إنك استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد المحض فيها بسفك الدماء وغيره من أنواع الفساد وليس ذلك من الحكمة، إنما الحكمة في أن تجعل فيها من يسبح بحمدك ويقدس لك كما نفعل نحن ولأجل هذا قدح بعض الناس في عصمة الملائكة من المعاصي حيث كان ظاهر هذا القول منهم اعتراضًا على الرب جل جلاله وطعنًا في حكمته وعلمه، فأجاب الرب عز وجل عن ذلك بمنع ما ذكروه من الفساد المحض من الخليفة الذي يجعله في الأرض بقوله عز وجل: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وتقريره: لا أسلم أن الخليفة الذي أجعله في الأرض يكون منه ما ذكرتم لأني أعلم أن سيكون منه من العبادة والتوحيد لي والذرية الطيبة الفاعلة لذلك ما لا تعلمونه أنتم، ثم عجل لهم أنموذج ذلك بامتحانهم بآدم وتعجيزهم به ثم عاقبهم على اعتراضهم بالسجود له، فإن قيل: فقد وجد الفساد من بني آدم فكيف يصح الجواب منع وجوده منهم؟ قلنا: النزاع في الفساد المحض وذلك لم يوجد منهم بل وجد منهم فساد وصلاح كثير، ون كان الفساد أكثر، لكن تقتضي حكمة الحكيم احتمال كثير الشر ليسير الخير، كما يحتمل العقلاء كثير التعب ليسير الفوائد، فإن قيل: ليس في

قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ما يدل على أنهم حكموا على الخليفة بالفساد المحض، بل كلامهم مطلق في ذلك، والمطلق يصدق بوجود الماهية كأنهم قالوا: أتجعل فيها من يوجد منه فساد وسفك؟ وقد وجد ذلك، فالجواب من وجهين أحدهما: لا نسلم أن كلامهم مطلق في الفساد بل عام فيه لوجهين أحدهما قولهم: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ أي في الأرض وهي معرفة بلام الاستغراق فدل على أن المراد تعميم جميع أجزائها بالفساد والسفك وأن جميعها يكون ظرفًا لهما، وفي هذا نظر لأنه لا ينفي صدور الصلاح منهم وحينئذٍ لا يلزم تمحض الفساد، الوجه الثاني قولهم: ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أي جنس الدماء وذلك فساد متمحض، وفي هذا أيضًا نظر نحو مما في الأول.

الوجه الثاني: سلمنا أنه ليس في كلامهم ما يدل على إرادة الفساد المحض لكنه مرادهم لوجوه أحدها أنهم إنما قالوا ذلك بالقياس على قوم كانوا في الأرض متمحضي الفساد على ما نقله العلماء، فلو لم يكن مرادهم أن فساد الخليفة يكون محضًا لما صح القياس.

الوجه الثاني: أنهم قابلوا فساد الخليفة وسفكه بتسبيحهم هم وتقديسهم وبعادتهم وهم متمحضي التسبيح والتقديس والعبادة، فلو لم يكن مرادهم تمحض فساد الخليفة لما صحت المقابلة.

الوجه الثالث: أن الله عز وجل رد عليهم مقالتهم ولا يتحقق الرد عليهم إلا بمنع الفساد من الخليفة، ثم إن الذي امتنع من فساد الخليفة إنما هو لفساد المحض لا مطلق الفساد، فلو كانت الملائكة إنما أثبتت للخليفة مطلق الفساد لا الفساد المحض لما صح المنع ولكان الله عز وجل موافقًا لهم في سؤالهم لا رادًّا عليهم، هذه دلائل واضحة من المراد.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ﴾ [البقرة: ٨٤] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] هذه حجة احتج الله عز وجل بها على أهل الكتاب، وذلك أنه كان قد أخذ عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضًا ولا يجليه عن دياره، وأن يفتدي بعضهم بعضًا – إذا

وجده اشتراه – فخالفوا الأوليين وامتثلوا الثالثة، وتقرير الحجة أن حكم المثلين واحد والكتاب الذي أنزل عليكم بجزئيه حق فالأخذ بأحدهما دون الآخر تجريح بلا مرجح، أو يقال: الأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه؛ لأن جزئيه مثلان وحكم المثلين واحد، ومن هذا الباب قول الفقهاء: إن من ولد له توآمان فأقر بأحدهما أنه ولده لحقه الآخر وليس له نفيه باللعان.

٦- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧] هذا هو الذي يسميه الفقهاء في مناظراتهم ومحاوراتهم التشهي والتحكم، فيقول أحدهم لصاحبه: لا حجة على دعواك، أفتثبتها بالتشهي والتحكم؟ وهو راجع إلى لزوم الترجيح بلا مرجح أو بما لا يصلح مرجحًا، وتقرير الاحتجاج: إن تكذيبكم للرسل وقتلكم إياهم حكم بالتشهي والحكم بالتشهي باطل، فحكمكم بذلك في الأنبياء باطل.

أما الأولى فلأنكم تجعلون الرسل تبعًا لأهوائكم وشهواتكم، ما وافقها من أحكامهم قبلتموه وما خالفها رددتموه، وأما الثانية فلأن ذلك ترجيح بما لا يصلح مرجحًا إذ لو كان الشرع تابعًا للشهوات لكان في الطباع ما يغني عنه، وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له لكن ذلك باطل، وهذا الاحتجاج والذي قبله مفحمان لا جواب للخصم عنهما فلذلك لم يحك عنهم فيه شيء.

٧- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩] هذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد عليه السلام، وذلك أن اليهود كانوا يحاربون العرب في الجاهلية ويستنصرونه عليهم ببركة محمد عليه السلام قبل ظهوره، إذ كان عندهم أنه سيظهر فيقولون: اللهم ببركة رسولك الذي وعدتنا أن ترسله في آخر الزمان افتح لنا وانصرنا على عدونا، فيفتح لهم وينصرون، فلما ظهر النبي عليه السلام كفروا به، وتقرير الحجة عليهم أن يقال: لو كان كفركم به الآن حقًّا لكان استفتاحكم به قبل باطلًا واللازم باطل فالملزوم كذلك، أو يقال: إن كان استفتاحكم به حقًّا فكفركم به الآن باطل والمقدم حق فالتالي مثله، أو يقال: أحد

الأمرين لازم إما خطأكم في استفتاحكم به أولًا، وإما خطأكم في كفركم به آخرًا لكن الأول باطل، فالثاني حق، أو يقرر بطريق استسلاف المقدمات والمؤاخذة بالاعتراف فيقال: قد صدقتم به قبل ظهوره فلزمكم حكم التصديق به فلا يسمع كفركم به بعد فأنتم إذن في عهدة العناد.

٨- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] هذه حكاية مناظرة بين الرسول واليهود، قال لهم الرسول: إن الذي جئتكم به حق أنزله الله عزو جل فآمنوا به، فأجابوا بالمنع، أي: لا نسلم أن الله أنزل ما جئت به وإنما أنزل ما عندنا فنحن نؤمن به دون غيره، فأجاب الله عز وجل من ذلك بوجهين: أحدهما الإلزام بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: إن الذي جاءكم به محمد موافق لما عندكم مصدق له فهو مثله وحكم المثلين واحد فيلزمكم الإيمان بهما جميعًا وإلا لزمكم العناد بغير برهان.

الوجه الثاني: النقض بقوله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: ٩١] وتقريره: إنكم زعمتم أنكم إنما تؤمنون بما أنزل عليكم ثم إنكم خالفتموه، إذ فيما أنزل عليكم تصديق أنبياء الله وإكرامهم فقتلتموهم. ثم كأنه توقع منهم جوابًا عن هذا بأن يقولوا كل من قتلناه كان كاذبًا ولم تثبت عندنا نبوته ولم ثبتت عندنا نبوتهم لما قتلناهم وحينئذٍ ما خالفنا ما أنزل علينا فلا يرد علينا هذا النقض، فنقض عليهم أيضًا بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢]، أي: هب أن قتلكم أنبياء الله لا يرد عليكم نقضًا على جهة التنزل معكم في المناظرة فإن النقض لازم لكم بموسى فإنه جاءكم بالتوارة وأخذ عليكم أن تصدقواه وقد خالفتم ذلك وكذبتموه حيث اتخذتم العجل من بعده – أي من بعد ذهابه لميقات ربه – لأنه جاءكم بالتوحيد وأن لا إله إلا الله فعبدتم دونه عجلًا وهذا صريح التكذيب.

٩- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، كانت اليهود تقول: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأن الله عز وجل يقول في التوراة لإسرائيل ابني بكري ونحن بنو

إسرائيل، فنحن بنو ابن الله وابن الابن ابن فنحن أبناء اللها ولنا الدار الآخرة ونعيمها خالصة دون الله، وإنما يعذب منها من عبد العجل في النار مدة عبادته له وذلك أربعون يومًا ثم يخرج منها، وإلى ذلك الإشارة بقوله عز وجل: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾فأجاب الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة:٨٠] وهو جواب تقسيمي، أي هذا الذي ادعيتموه في تقدير مقامكم في النار أربعين يومًا باطل؛ لأن ذلك إما أن تكونوا علمتوه بعهد عهده الله إليكم أو أنه تقول منكم على الله بغير علم، لكن الأول باطل فتعين الثاني وهو في الجواب التقسيمي كقوله: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] ونظائره، ثم أجاب الله عز وجل عن دعواهم بأن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس بمعارضة امتحانية تبطلها، وتقريرها: إن كان ما زعمتموه صحيحًا فتمنوا الموت؛ لأن الابن لا يكره لقاء أبيه والحبيب لا يكره لقاء حبيبه لكنكم لا تتمنون الموت بما –أي بسبب ما – قدمت أيديكم من المخازي التي تستحقون بها العذاب، فإذن ما زعمتوه غير صحيح، وقد كشف هذا المعنى في سورة المائدة بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، وقرر ها هنا أنهم لا يتمنون الموت، بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] ونظيرها في سورة الجمعة إلى قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] وكان هذا من أعظم المعجزات لنبينا عليه السلام؛ لأنه معهم في مقام المناظرة التي تتوفر الدواعي فيه على تكذيب الخصم، فلو لم تعلموا صدق قوله وثبوت رسالته وإلا لقالوا: أنت قد أخبرت في كتابتك الذي زعمت أنه أعظم براهينك ومعجزاتك أننا لا نتمى الموت أبدًا ونحن فقد تمنيناه الآن فأنت إذن كاذب، وإنما منعهم عن تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي بتكذيبه وغيره من مخازيهم.

١٠- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] هذه دعوى من كل واحدة من الطائفتين، أي قالت كل واحدة منهما: لن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا ورأينا. فأجاب الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وهو المعروف بسؤال المطالبة أي بالدليل، أي: لا نسلم صحة ما زعمتموه إنما هو دعوى مجردة فأين برهانها؟ ويحتج بهذه الآية ونحوها من

يرى أن على النافي دليلًا؛ لأن الله عز وجل طالبهم بالبرهان على دعوى نافية، وفي ذلك للناس أقوال ثالثها أنه يلزم في الشرعيات دون العقليات.

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] هذه حكاية دعوى المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الله وعزير والمسيح ابن الله ونحوهم، فأجاب الله عز وجل بمنع تلك الدعاوى بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦] أي تنزيهًا له عن الولد ثم احتج على نفي الولد بحجج إحداهن مستفادة من قوله: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتقريرها: إن ما في السموات والأرض مملوك لله عز وجل وليس يخرج عن ذلك أحد حتى يكون ولده، أي يستحيل أن يكون له ولد لأن من سواه مملوك له والمملوكية تنافي الولدية، الحجة الثانية من قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي من هو قادر على إيجاد السموات والأرض ابتداعًا واختراعًا كيف يعجز عن اختراغ غيرهما بما فيهما حتى تحتاج أيها الكفار إلى نسبة شيء من ذلك إليه بالولادة؟ الحجة الثالثة من قوله: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] وتقريرها: إن الولد إنما يحتاج إليه للتكثر به من قلة أو للاستعانة به من عجز والله عز وجل لا قليل فيكثر بالولد ولا عاجز فيستعين به؛ لأن سر قدرته بين الكاف والنون إذا أراد شيئًا قال له (كن) فيكون، ونظير هذا قوله في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] منعهم الدعوى وبين لهم مستند المنع بأنه غني عن مساعد وطالبهم بالبرهان على ذلك بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

١١- ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ هذه دعوى من اليهود والنصارى كما سبق منهم، أي قالت كل واحدة من الطائفتين: إن الهدى فيما نحن عليه فاتبعونا تهتدوا، فأجيبوا بمنع ومعارضة وكلاهما في قوله عز وجل: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، أي: لا نسلم أن الهدى فيما أنتم عليه، فهذا هو المنع وهو مستفاد من الإضراب بـ ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: إنما نتبع – أو: اتبعوا، ملة إبراهيم حنيفًا، فهذا هو المعارضة، أي إن ما ذكرتموه من الدعاء إلى التهود والتنصر معارض بدعائنا إياكم إلى ملة إبراهيم، ولم يكن على ما أنتم عليه: ما كان

إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥] ثم ما ذكرناه أولى؛ لأن إبراهيم أبونا وأبوكم فأولى ما اتبعنا ملته، وليس لأهل الكتاب من الاعتراض على هذا إلا أنهم يمنعون أن إبراهيم كان على ما جاء به الإسلام، وقد أجاب الله عنه بعد هذا بقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] أي الله عز وجل أعلم بما كان عليه النبيون وإنما كان هؤلاء على ملة الإسلام التي جاء بها محمد عليه السلام، ولم يبق لهم على هذا إلا نزاعهم في صدق الرسول الذي أخبر عن الله عز وجل بأن إبراهيم كان على الإسلام، وقد ثبت ذلك أعني صدق الرسول في ذلك ببراهين النبوة.

١٢- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] هذا سؤال أورده الكفار لما نقل النبي عليه السلام عن الصلاة إلى بيت المقدس إلى الصلاة إلى الكعبة، وتقريره: لو كان محمد نبيًّا لما ترك قبلة الأنبياء ولو كان ما جاء به من عند الله لما فعل اليوم شيئًا وتركه غدًا، فأجاب الله عز وجل بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢] وهو يمنع الملازمة المذكورة أي: لا نسلم أن عدم تركه لقبلة الأنبياء لازم لكونه نبيًّا لجواز أن يكون نبيًّا ويترك قبلة الأنبياء بطريق النسخ إلى أفضل منها، إذ لله جميع جهات المشرق والمغرب يتعبد من شاء من خلقه بالصلاة إلأى ما شاء من الجهات لما يعلم لهم في ذلك من المصلحة والهداية، ثم بين بعد ذلك الحكمة في نسخ القبلة بقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: أردنا بذلك امتحان الناس بالانقياد إلى أوامر الشرع ليعلم المنقاد من ذي العناد.

١٣- ومن ذلك قوله عز وجل في محاورة بني إسرائيل لنبي لهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فاستبعدوا ذلك بقولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وربما كان هذا منهم قدحًا في حكمة الله إن كانوا صدقوا النبي في أخبار أو قدحًا في خبر النبي إن كانوا لم

يصدقوه، فقالوا: ليس طالوت صالحًا للملك علينا؛ لأنه ليس غنيًّا ولا من بيت الملك؛ لأن الملك عندهم كان في آل يهودا بن يعقوب ولم يكن طالوت منهم، فأجابهم النبي بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وتقرير هذا الجواب من وجوه أحدها القدح في سؤالهم بأنه فاسد الاعتبار؛ لأنه قياس في مقابلة النص، فإن الله عز وجل قد استصلحه وأهله للملك بحسب علمه فيه وأنتم تنكرون ذلك بناء على أن الحسب والنسب مناط استحقاق الملك ولا قياس مع النص. الوجه الثاني القدح في ممناسبة العلة فإن النسب والنشب ليس فيه كبير مناسبة لاستحقاق الملك وإنما يعتبر ذلك من يعتبره من قبيل التكملة لا من قبيل الضرورة. الوجه الثالث: معارضة علتهم بعلة أخرى وتقريره: إن كان ما ذكرتموه من المال والحسب مناسبًا لاستحقاق الملك حتى ينتفي بانتفائه فإن البسطة في العلم والجسم أمر مناسب لاستحقاق الملك فليوجد بوجوده، بل هذا أشد مناسبة لأن البسطة في الجسم أمارة الشجاعة وهي شرط في الإمام تقحيقًا للنكاية في الأعداء، والبسطة في العلم يحتاج إليها في إقامة قانون الشرع وسياسة الملك بوضع الأمور مواضعها بخلاف ما عللتم به إذ الشجاع العالم يمكنه القيام بأود الملك وإن كان فقيرًا دنيء النسب بخلاف الجبان الجاهل إذا كان حسيبًا مثريًّا.

١٤- ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة:٢٥٨] يقال: حاجه يحاجه محاجة، وأصله: حاججه يحاججه محاججة إذا ناظره وجادله ولكن أدغم أحد الجيمين في الآخر لتماثلهما، وحجة يحجه حجًّا إذا ظهرت حجته عليه وغلبه، فحجه أخص من حاجه إذ كل حاج محاج ولا عكس إذ يلزم من انقطاع أحد الخصمين وقوع الجدال بينهما ولا يلزم من وقوع الجدال بينهما انقطاع أحدهما، قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] يعني أن إبراهيم لما دعا نمرود إلى الإيمان قال له: من ربك هذا الذي تدعوني إليه؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت، أي فهو أحق بالعبادة منك وواجب عليك أن تعبده؛ لأنه يقدر على ما لا تقدر عليه وهو الإماتة والإحياء، فأجاب نمرود بالمعارضة بالمثل أي: لا أسلم أن ربك يقدر على ما لا أقدر عليه مما ذكرت لأني أنا أيضًا أحيي وأميت، فما المرجح لعبادة ربك على عبادتي؟ فانتقل إبراهيم عليه

السلام إلى دليل آخر لا عجزًا عن تمشية الدليل الأول بل قصدًا لإنجاز قطع خصمه ومبادرة إلى إظهار حجة الله عز وجل على خلقه إذ قد كان له أن يبطل معارضة نمرود بالفرق البين الواضح فيقول: إن إحياء ربي وإماتته على وجه تعجز أنت عنه وهو قبض الأرواح من الأجساد وأعادتها إليها من غير علاج وأنت تحتاج في إماتتك إلى علاج كضرب السيف ونحوه من الأسباب، وأما إحياؤك فليس إحياء بالحقيقة بل هو استدامة لإحياء ربي بإذنه وإرادته، وإلا فلو أراد إماتة من أردت أنت استبقاءه لغلب عليك، وإنما أتى نمرود إما من جهله بحقيقة الإحياء والإماتة حتى اشتبه عليه مجازهما بحقيقتهما أو من تجاهله مشاغبة وسفسطة فموه بالمجاز عن الحقيقة مغالطة. فلما رأى إبراهيم صلوات الله عليه جهل نمرود أو تجاهله واستشعر أن ملازمته لتمشية الدليل الأول تفضي إلى الطول وإلى أن يصير للخصم شبهة في الحق بطول مقام المناظرة عدل به إلى حجة قاطعة مفحمة على جهة التنزل معه كأنه قال: هب أنه ثبت لك أنهك تحيي وتميت لكن أنت تدعي مساواة ربي في كل ما يقدر عليه وإن ربي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب إن كانت صادقًا ولم تقدر على ذلك، ولو كنت إلهًا لقدرت عليه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] يعني نمرود تحير في الجواب وانقطعت به أسباب الخطاب؛ لأنه عاجز عن ذلك، وإنما قال له ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ولم يقل: فأتب ها من المشرق لأمرين:

أحدهما: أنه لو قال ذلك فربما تواقح نمرود وقال: أنا آتي بها من المشرق، ثم يدعي بعد ذلك أنه الذي أتى بها من المشرق، فلو قال إبراهيم: إنما أتى بها إلهي على عادته في ذلك لقال نمرود ليس الأمر كذلك بل أنا قطعت عادة إلهك في ذلك، والتصرف الآن في طلوعها من المشرق لي، فكان يلتبس الأمر ويتعذر تحقيقه بخلاف الإتيان بها من المغرب فإن إبراهيم لم يدعه ونمرود لا يقدر عليه فيتعذر عليه المكابرة والمواقحة.

الأمر الثاني: أن نمرود كان يدعي الإلهية ويعاند من سواه في ذلك فجرى إبراهيم معه على عادة المتعاندين في تقابل الأفعال، أي: أنت تعاند إلهي فلا ألزمك ما يوافق فعله بل هات ما يوافق طبعك في معاندته بفعل يعاند فعله ويقابله وهو الإتيان بالشمس من المغرب يقابل المشرق، واعلم أن المنجمين لما سمعوا هذا قالوا: إن إبراهيم ألزم

نمرود محالًا، إذ يستحيل انعكاس دوران الفلك عندهم، ولا أدري ما وجه استحالته مع أن حركات الأفلاك عندهم إرادية أي إنها تتحرك بإرادتها بناءً على أنها أحياء ناطقة، وحينئذٍ كما تحركت بالإرادة إلى المغرب جاز أن يتحرك الفلك كذلك عن المغرب، وبالجملة فنحن نقول: الذي أوجد ماهية الفلك وحركته قادر أن يعدمهما أصلًا وأن يغير كيفيتهما ويفعل ما يشاء وليس ما يلزم من ذلك محال لذاته ولا لغيره فيكون ممكنًا. ويقال: إن حكمة طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان عند قيام الساعة تكذيب من أنكر جواز ذلك من جنس الفلاسفة والمنجمين، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

obeikandl.com

ومن سورة آل عمران

١- قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يعني بالتخلف عن الحرب ﴿مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]. والقائل لهذا هم المنافقون الذين انخزلوا عن النبي عليه السلام وأصحابه يوم أحد، فأجاب الله عز وجل بمنع الملازمة المذكورة أي: لا نسلم أن عدم قتلهم لازم لطاعتكم بحيث يلزم من وجودها وجوده، لجواز أن يطيعوكم في القعود عن القتال، ثم يقتلون في بيوتهم كما قال عز وجل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، ثم أبطل تعليلهم بسلامة إخوانهم بطاعتهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أي ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي إن كانت طاعتكم وآراؤكم موجبة لسلامة إخوانكم فهي موجبة لسلامتكم بطريق أولى؛ لأن الإنسان أشد نصحًا وأشد نظرًا لنفسه من غيره، فلو صح ما ذكرتموه لأمكنكم دفع الموت والقتل عن أنفسكم، لكن اللازم باطل فالملزو م كذلك فإذن طاعتكم لا أثر لها في سلامة ولا هلاك، إنما التأثير لإرادة الله عز وجل وما سبق في علمه من الأجل.

قلت: ما أعقل ما كانت العرب على جاهليتها حيث يقول قائلهم[1]: [الطويل]

تحصن قوم بالسلاح وإنما ... بقية آجال الرجال حصونها

ولئن كان هذا البيت لبعض لبعض الإسلاميين فقد صح عن الجاهليين في معناه كثير.

٢- ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] الآية. لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب إلى الإيمان ادعوا هذه الدعوى وهو أن الله عز وجل عهد إليهم في كتبهم وعلى ألسنة أنبيائهم أن لا يصدقوا رسولًا حتى يأتيهم بقربان تأكله النار على ما كانت عليه أنبياء بني إسرائيل: إذا غنموا غنيمة جمعوها في مكان ونزلت نار من السماء فتأكلها، قالوا: وأنت ما جئتنا بذلك فلا يلزمنا تصديقك، فأجاب الله عز وجل عن هذه

(١) انظر: البيان والتبيين ١/٣٠٣، وجمهرة الأمثال ٢/٢٧١.

الدعوى بمثل ما أجاب به عن قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١] كما سبق في سورة البقرة وهو أن الأنبياء عليهم السلام قبل محمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بالبينات وبالذي قلتم من القربان الذي تأكله النار، ومن ذلك قتلتموهم، فإن كان ما زعمتموه حقًّا فأحد الأمرين لكم لازم: إما مخالفتكم عهد الله في أنبيائه وهو كفر، أو كذبكم في هذه الدعوى وهو مُحال؛ لأن ذلك يوجب بطلانها على تقدير صحتها، فيكون بطلانها لازمًا لصحتها فتكون باطلة، إذ ملزوم الباطل باطل، واعلم أن هذا الجواب بالمناقضة على سبيل التنزل في المناظرة وإلا فالجواب على التحقيق بمنع دعواهم المذكورة أي: لا نسلم أن الله عهد إليكم بما ذكرتم وأنتم تكذبون فيه، سلمناه لكنكم ناقضتم دعواكم بقتلكم الأنبياء وتكذيبكم لهم مع أنهم جاءكم بما أردتم، زعم بعض المفسرين أنه لا بد من حمل هذا الجواب على التنزل؛ لأنه إن لم يحمل على ذلك كان تسليمًا لدعواهم أن الله عهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار وذلك صعب، قلت: هذا فيه نظر لأن الجواب المذكور في الآية بمناقضة دعواهم يبطلها ومع بطلانها يمتنع تسليمها، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة النساء

١- قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] لم اطعن الكفار في القرآن، وقالوا: ليس هو من عند الله، وإنما هو من كلام محمد أو أساطير الأولين اكتتبها، ولم يكن لهم على ذلك برهان أكبر من التهمة المجردة بين الله عز وجل بطلان دعواهم بهذه الملازمة المذكورة، وتقريرها: لو كان القرآن من عند غير الله لوقع الاختلاف فيه لكن لم يقع الاختلاف فيه فليس من عند غير الله، فهو إذن من عند الله، فوقوع الاختلاف فيه لازم لكونه من عند غير الله وقد انتفى فينتفي ملزومه. وقد اعترض الملاحدة على هذا بوجهين:

أحدهما: منع الملازمة، قالوا: لا نسلم أنه لو كان من عند غير الله لاختلف؛ لأن كثيرًا من الناس تكلموا فلم يمختلف كلامهم لتحرزهم عن التناقض فيما يقولون، فجاز أن يكون محمد كذلك أنشأ القرآن وتحرز عن اختلافه فلا جرم جاء متسقًا غير مختلف.

الثاني: منع انتفاء اللازم، قالوا: لا نسلم أن الاختلاف لم يقع فيه بل فيه اختلاف كثير قد قرره الطاعنون عليه.

والجواب عن الأول: أن مراد الكفار بغير الله في قولهم القرآن من عند غير الله هو محمد ومن أملى عليه القرآن كرحمان اليمامة ونحوه فيما زعموا. وهذان الرجلان كانا أميين لا أنسة لهما بالكتب ولا بدراسة الحكمة، وخلو كلام مثلهما عن الاختلاف وإن لم يكن محالًا لذاته فهو محال في العادة أن أميًّا يأتي بمثل هذه المعاني الفخمة في هذه الألفاظ الجزلة والجمل الكثيرة فلا يقع الاختلاف في كلامه وقل في العالم متكلم لم يستند إلى تأييد إلهي تكلم فلم يختلف كلامه. فلما رأينا هذا الكلام على قرب تناوله وبعد مغزاه وكثرته في نفسه غير مختلف استدللنا بحكم العادة على أنه ليس من عند غير الله.

والجواب عن الثاني: أن ما ظنه الطاعنون اختلافًا في القرآن ليس اختلافًا في نفس الأمر؛ لأن شرط الاختلاف والتناقض بين كل قضيتين أن يتفقا في الزمان والمكان والموضوع والشرط والجزء، والكل والقوة، والفعل ونحو ذلك من شروط التقابل إن وجد، وليس في القرآن قضيتان تقابلتا كذلك بل لا بد من اختلافها بزمان أو مكان أو

غيره من الشروط. نعم فيه العام والخاص والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والناسخ والمنسوخ، ولا تناقض في شيء من ذلك، ولكن الطاعنون في القرآن أخطأ ظنهم لجهلهم، وقد ذكر مطاعنهم والجواب عنها جماعة من أهل العلم كالإمام أحمد في كتاب مفرد، وابن قتيبة في أول "مشكل القرآن " وغيرهما.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧]، هؤلاء قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا ثم خرجوا مع المشركين إلى بدر فقتلوا، فقالت لهم الملائكة – يعني ملائكة الموت الذين يتوفونهم – : فيم كنتم؟ أي: في أي دين كنتم؟ مع المؤمنين أم مع المشركين؟ كذلك قال بعض المفسرين، فعلى هذا يكون قولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧] عدولًا عن الجواب المطابق، وفرارًا عن الحجة فيكون فاسدًا، والذي يقتضيه ظاهر الآية وسياقها أن المراد: في أي أمر أو شغل كنتم حتى تركتم الهجرة واللحوق بالمسلمين، وحينئذٍ يكون جواب الكفار كقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ مطابقًا، أي: أضعفنا بين الكفار لم نقدر على الهجرة، ويكون قول الملائكة لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ تكذيبًا لهم في دعوى العجز عن الهجرة ومنعًا له، أي: ليس ضعفكم بين الكفار مما يوجب عجزكم عن الهجرة، إذ كان يمكنكم أن تهاجروا مستخفين كغيركم، والأظهر أنهم على هذا الوجه أيضًا عدلوا عن الجواب المطابق وادعوا مجرد الاستضعاف دون العجز عن الهجرة فكان جوابهم قاصرًا فلزمتهم الحجة بالتقرير المتقدم. ويدل على أن هؤلاء لم يكونوا عاجزين عن الهجرة استثناء الله عز وجل للعاجزين عنها بعد ذلك بقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء:٩٨، ٩٩]، وا لله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة المائدة

١- قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] الآية. هذه دعوى من النصارى أكفرهم الله عز وجل بها ثم دل على بطلانها بوجهين:

أحدهما قوله: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] وتقريره: لو كان المسيح هو الله لما قدر الله على إهلاكه، لكنه يقدر على إهلاكه وإهلاك غيره من الموجودات فلا يكون المسيح هو الله، بيان الملازمة أن الله عز وجل لا يهلك نفسه وليس ذلك من الممكن حتى تؤثر القدرة فيه، بيان انتفاء اللازم أن الله على كل شيء ممكن قديرة الإجماع.

الوجه الثاني قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وتقريره أن ما سوى الله مالكًا له ومن جملة ذلك المسيح وكون الله عز وجل مالكًا لنفسه محال.

ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] الآية. هذه دعوى منهم فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها بالمنع بقوله (بل) أي: ليست مغلولة كما زعموا بل ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وكا نسبب قولهم هذا أنهم كانوا أكثر الناس مالًا، فلما عصوا محمدًا عليه السلام قل خيرهم عقوبة لهم فقال فنحاص بن العيزار من رؤسائهم: يد الله مغلولة، أي: مقبوضة عن الرزق، وهذا شبيه بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] حيث اقترض منها، فأكذبهم الله عز وجل ومنع دعواهم.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] الآية. قد سبق نظير هذه والفرق بينهما أنهم في الأولى ادَّعوا صحة إلهية المسيح وأنه هو الله فرد عليهم من جهة الاستدلال العقلي بذينك الوجهين، وفي هذه ادعوا مع صحة ذلك أن المسيح أخبرهم أنه الله، وهذا وإن لم يكن مصرحًا به في الآية فهو مأخوذ من فحوى الجواب فيها، فكأنه قال: لقد كفر الذين اعتقدوا أن الله هو المسيح وأنه أخبرهم بذلك، وأمرهم باعتقاده، ثم لما كان الجواب عن صحة الدعوى

قد سبق أول السورة اكتفى به ها هنا، وبقي الجواب عن دعواهم إخبار المسيح بذلك، فأجاب عنه بمنع صحة النقل عنه والطعن في الخبر بذكر ما يلزم به تكذيبهم وهو قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، اعلم أن هذا إشارة إلى قول النصارى أن الله عز وجل جوهر ذو ثلاثة أقانيم: أب، وابن،وروح القدس، وأن كل واحد من هذه الثلاثة إله تام، ومع ذلك ليسوا ثلاثة آلة بل إله واحد، وهذا كلام يدرك العقل بطلانه بالبديهة، فإذا ضويقوا أو قيل لهم: جعلتم الواحد ثلاثة والثلاثة واحدًا، منعوا ذلك واستشهدوا بأقيسة فاسدة قد بينا زيفها وبُطلانها في كتاب مفرد في الردِّ عليهم. وقد أجاب الله عز وجل عن هذا الدعوى ها هنا من ثلاثة أوجه:

أحدها: منعها في نفس الأمر بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] يعني أنه واحد في كل جهة وإلا لم يحصل الجواب؛ لأنهم هم يعترفون بالتوحيد من حيث الذات ويدعون التثليث من حيث الصفات حتى إنهم يقولون في بعض فواتح كتبهم: بسم الواحد بالذات المثلث بالصفات، وتحقيق ذلك عنهم أنهم يعنون بالأب والابن وروح القدس الشيء الحي الناطق، والرد عليهم مستوفى غير ها هنا.

الوجه الثاني قوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وذلك كناية عن احتياجهما إلى المطعم والمشرب وحاجة الإنسان، وتلك ملزومات للحدوث والعبودية، فلو كان إلهًا لما كان كذلك؛ لأن الإله غني بذاته. وهم يتمحلون للجواب عن هذا بأن المحتاج إلى ذلك ناسوته دون لاهوته، وهو كلام ساقط؛ لأن الطعام والشراب إنما يراد لاستبقاء النفس في البدن، فلو كانت نفسه لاهوتية كما زعموا لاستغنت في بقائها عن سبب خارج، ولهم على هذا شكوك شبيهة بقولهم قد بينا زيفها غير ها هنا.

الوجه الثالث قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦]، وتقريره: لو كان المسيح إلهًا يستحق العبادة لملك لكم النفع والضر، إذ هذا شأن الإله لكنه لا يملك لكم شيئًا من ذلك لأنه لم يملكه لنفسه، حيث زعمتم أن اليهود صلبوه وأهانوه واستغاث إلى أبيه بالخلاص فلم يخلصه منهم، فكيف يملك ذلك لكم؟ والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الأنعام

وهي كثيرة الاحتجاجات من الله عز وجل للكفار والمناظرة لهم، ويقال: إنها نزلت جملة واحدة ومعها سبعون ألف ملك.

١- قوله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، احتج الله عز وجل على منكريه والمشركين معه غيره بخلقه للعالم وهو استدلال بالأثر على المؤثر وبالملزوم على اللازم، فنقول: لو لم يكن الصانع موجودًا لما أمكن وجود العالم بلا موجد، وطريق تقريره إن احتيج إليه بطلان الدور والتسلسل كما سبق في الباب قبله، وإذا ثبت وجوده وإيجاده للعالم ثبت استحقاقه للتوحيد بما سبق تقريره، وسيأتي إن شاء الله عز وجل، ثم وبهم على الشرك بقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عِدْلًا في العبادة، وأحسبه عرض بخلق الظلمات والنور بالمجوس والثنوية الذين زعموا أنهما صانعا العالم، ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢] أي تشكون وتترددون في توحيده، وهذا احتجاج أخص من الأول؛ لأن الاحتجاج هناك بخلق العالم الكلي، وهاهنا بخلق هؤلاء الكفار أنفسهم كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، وكان الكفار المخاطبون بهذا الخطاب يعترفون أن الله عز وجل خلقهم وقدر آجالهم وأرزاقهم بدليل قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ودل على ذلك ما ورد عنه من نظمهم ونثرهم فلزمتهم الحجة، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: إن الكفار يمنعون أنه خلقهم وقضى آجالهم فكيف يحتج عليهم بما يمنعونه، ثم لو منعوا ذلك لصح الاحتجاج وإثبات الحجة بالدليل كما سبق من أن المعترض إذا منع صحة الخبر أو دلالته أثبت بطريقه وإذا منع أصل القياس أثبت بالدليل.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [فاطر: ١٤] هذا إنكار للشرك وإثبات للتوحيد على منكريه، واحتج عليه بحجتين: إحداهما قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إن من يخلق السموات والأرض لا يقاومه غيره حتى يكون معه شريكًا ويستحق معه العبادة، الثانية قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] على القراءة

العامة، أي كونه يطعم الخلق ويرزقهم وهو غير محتاج إلى أن يطعموه يقتضي توحيدهم له لأجل إحسانه إليهم ويدل على استغنائه بذاته عما سواه فلا يحتاج إلى معين ولا مساعد، وعلى القراءة الأخرى – أحسبها شاذة – وهو (يطعم) على ما لم يسم فاعله (ولا يطعم) على تسمية الفاعل يعني (غير الله) وهي الأصنام يطعمونها وهي لا تأكل شيئًا فكيف تستحق هذه أن تعبد مع الله، فالقراءة الأولى تقرير لتوحيد الله عز وجل والثانية قدح في شركة غير هله.

٣- ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢] إلى قوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤]، الآيات، هذه محاجة تقع في الآ×رة بينهم وبين الله عز وجل فيدعي عليهم بالإشراك فيمنعون وينكرون أنهم أشركوا، فيقيم الله عز وجل عليهم الحجة إن كانوا مع الأمم الخالية فبشهادة هذه الأمة عليهم، وإن كانوا من هذه الأمة فبشهادة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم كما في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فلا يتوهمن متوهم أن قوله عز وجل ها هنا: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام:٢٤] عقيب ذكر منعهم وإنكارهم اقتصار منه على تكذيبهم في جواب منعهم بل الله أعدل من أن يدع لأحد شبهة له الحجة البالغة، لكن لما تقرر في موضع آخر من الكتاب والسُّنَّة إقامة الحجة عليهم بما ذكرنا وبشهادة الأعضاء والجوارح اكتفى به عن ذكره ها هنا.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٥، ٢٦]. المشهور في هذا وهو الظاهر الإنكار على الكفار نهيهم عن القرآن واتباعهم ونأيهم – أي تباعدهم – عنه بأنفسهم، وقيل: المراد أبو طالب كان ينهى عن أذى النبي عليه السلام ويحوطه ويذب عنه ويتباعد عن الإيمان بما جاء به، فعلى هذا هو إيراد للمناقضة على فعل أبي طالب، فهو قريب من قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] بل هذا غير أمر أبي طالب

على ما نقل في السيرة من تصريحه بتصديق محمد عليه السلام وأمر ابنه علي رضي الله عنه باتباعه وتخلفه هو، ولما أنس النبي عليه السلام من أبي طالب الانقياد لذلك حرص على إسلامه فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فانقطع الخطاب.

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١] هذا إلزام للمشركين على شركهم فإنهم كانوا يعبدون الأصنام، وإذا وقعوا في مكروه دعوا الله في كشفه، وقد دل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥، ٦٦] الآيتين.

ونظائرهما وتقرير الإلزام: أخبروني إذا جاءكم مكروه من عذاب الله هل تدعون لكشفه أصنامكم التي تبعدونها أم الله؟ إن قلتم: أصنامنا، كذبتم إذ الواقع منكم بخلافه، بل أنتم في تلك الحال تنسون آلهتكم بالكلية، وإن قلتم: الله عز وجل، فهو أهل أن توحدوه وتفردوه بالعبادة كما أفردتموه بالدعاء لكشف البلاء، فلماذا تعبدون معه غيره؟

٦- ومنها قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، أي: بمجموع ما ذكر – هذا إلزام آخر وتقريره: أخبرونا لو أن الله عز وجل ذهب بحواسكم فجعلكم صمًّا عميًا لا تعقلون، هل كانت آلهتكم تقدر على ردها عليكم أم لا؟ إن قلتم: تقدر على ذلك، كذبتم؛ لأن القدرة شرطها الحياة وهي أموات لا تسمع ولا تبصر، وإن قلتم: لا، فكيف استحق منكم العبادة من لا ينفعكم مع من يستقل بنفعكم؟ ليس لهم على هذا اعتراض إلا تكذيب الرسول في نقله عن الله وقولهم: نعبدهم ليقربونا إلى الله، وفساده ظاهر مما ذكرناه؛ لأن التقريب فعل وهو لا يصح إلا من حي وآلهتهم جماد لا يصح منها، وإذا فسدت شبهتهم ثبت صحة ما قاله النبي ولزمهم اتباعه على كل حال، ثم لما قرر عليهم بهذا أنهم ظالمون بوضعهم العبادة غير موضعها قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]، أي: إنكم ظالمون

بشرككم؛ لأن الشرك ظلم عظيم، فإن جاء عذاب من الله لم يهلك إلا أنتم ويسلم الموحدون ترهيبًا لهم.

٧- ومنها قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤] والاستدلال بها كما سبق ثم صرح بذلك في قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٧١] يعني: إن اتبعناكم على ضلالكم.

٨- ومنها قوله عز وجل حكاية عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] الآيات، هل كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم في هذا الاستدلال ناظرًا لنفسه أو مناظرًا لقومه؟ القصة محتملة للقولين: أما الأول: فلأنه لم يكن ليقدم على قوله عن الكوكب والقمر والشمس ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في المناظرة وهو يعلم خلافه؛ لأنه كفر لا ضرورة إليه، وقد نقل أنه إنما قال ذلك صبيًا حين خرج من المغارة على ما ذكر في قصته.

وأما الثاني: فلأن القصة مكتنفة من طرفيها بما يقتضي أنه كان مناظرًا، إذ في أولها: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وفي آخرها: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٨٣]، ومن ينصر الاحتمال الأول يقول: لا يمتنع أنه كان في هذه القصة ناظرًا ثم ناظر قومه بها بعد ذلك فاجتمع له النظر والمناظرة بدليل قوله: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ [الأنعام: ٨٠] والظاهر أنه أراد: هداني بالنظر الأول، وهو المذكور في هذه القصة، ومن ينصر الثاني يقول: لا يمتنع أن يقول للكوكب ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على جهة التهكم أو الإنكار بإضمار همزة الاستفهام أو التقرير على جهة الفرض والتقدير أي:أفرض وأقدر أن هذا ربي أفلا ترونه آفلًا؟ أي:غائبًا منتقلًا متحركًا وتلك سمات الحدوث والحادث لا يصلح إلهًا، وهذه الطريقة هي التي يستعملها المتكلمون في

إثبات حدوث العالم، وهي مبنية على مقدمات إحداهن إثبات الأعراض كالألوان والأكوان والحركات والسكنات، وإنكار ثبوتها عناد.

الثانية: أنها حادثة لأنا نشاهدها توجد وتعدم فهي مسبوقة بالعدم ملحوقه به وذلك هو الحدوث، الثالثة أن الجواهر والأجسام لا تنفك عن الأعراض إذ الجوهر لا يخلو عن حركة أو سكون واجتماع أو افتراق وسواد أو بياض أو غيره من الألوان، والرابعة: أن ما لا ينفك عن الحادث ولا يسبقه فهو حادث، ونظم الدليل من هذا المقدمات بعد اختصارها في مقدمتين هكذا: الجواهر والأجسام لا تنفك عن الأعراض الحادثة، وما لا ينفك عن الحادث فهو حادث، فالجواهر والأجسام حادثة، وقد تقرر أن العالم بجميع أجزائه إما جوهر أو جسم أو عرض فالعالم بجميع أجزائه حادث، وإذا ثبت حدوثه لزم أن يكون له محدث قديم بما سبق من دليل الدور والتسلسل، والنزاع في قدم العالم مع الفلاسفة وفي عدم الصانع مع الملاحدة المعطلة.

٩- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية. هذا القائل هو مالك بن الصيف اليهودي جادل النبي عليه السلام، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أنشدك الله الذي أنزل التوارة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض العالم السمين؟ " قال: نعم، قال: وأنت كذلك، فغضب مالك، وقال: " ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ "، فأبطل الله عز وجل دعواه الكلية بصورة جزئية وهو إنزال التوراة على موسى وهو ضرب من النقض.

١٠- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] الآية. هي مثل قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]، وهذا كان أول الأمر قبل أن تتوافر آياته عليه السلام، قالوا له: لو كنت صادقًا لجئتنا بآية ولو جئتنا بآية لآمنا بها واتبعناك، فأجيبوا بأن هذا سؤال فاسد؛ لأن إظهار الآيات إلى الله ليس إلي فأنتم تكلفونني ما ليس إلي ولا في طاقتي، وإنما أجيبوا بهذا؛ لأنهم سألوا عنادًا وعبثًا إذ قد جاءهم بالقرآن وهو معجز في نفسه وتحداهم فعجزوا، ثم سألوا غيره وظهر عنادهم، فلم يجابوا إلى ماسألوا زيادة في إضلالهم. ثم جاءت الآيات بعد بدليل قوله في موضع

آخر: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا﴾ [يونس: ٢٠] وهذا وعد بالآيات فيما بعد.

١١- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، قيل: إن أبا جهل، قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى صرنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، والله لن نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه، وقيل: هي في الوليد بن المغيرة، قال: لو كانت النبوة حقًّا لكنت أولى بها، فأجيبوا بعدم أهليتهم للرسالة، وهو من باب فساد الاعتبار؛ لأنهم ادعوا أهليتهم للرسالة بالقياس أو التحكم المحض وصاحب الأمر لا يؤهلهم لذلك، وهذا نحو من قول قوم نوح له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧] أي: لست أحق بالنبوة منا.

١٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

١٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] اعلم أن هذا الكلام في نفسه حق، إذ الأشياء كلها صادرة عن مشيئة الله عز وجل خيرها وشرها، ولكن أخرجوه مخرج العنت والعناد كقوله: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يونس: ٤٧] فهو حق في نفسه وذموا عليه لفساد قصدهم به. فكذلك ذمهم الله عز وجل وتوعدهم على عنتهم ها هنا فقال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] قرئت (كذب) بالتشديد والمعنى عليه واضح، أي: كذبوا الرسل، وقرئت بالخفيف ومعناه أنهم كذبوا في تكذيبهم للرسول، كما كذب الذين من قبلهم في تكذيبهم للرسل، أو يكون المراد أنهم كذبوا في أنهم يعتقدون إضافة إشراكهم إلى مشيئة الله عز وجل بل إنما يقولونه جدلًا وإلزامًا لا دينًا واعتقادًا كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾أي في مطابقة قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] اعتقادهم لا أنهم كاذبون في قولهم؛ لأنه حق. والمعتزلة تمسكت بهذه الآية في نفي القدر وخلق الأفعال، ووجه تمسكهم أن الله كذب الكفار في إضافتهم الأفعال إليه فدل على أنها غير مضافة إليه، وهذا مندفع بما

ذكرناه بدليل قراءة التثقيل وتحمل قراءة التخفيف على وفقه بما ذكرنا، وقد حقق ذلك بعد بقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فأخبر أن مشيئته هي المؤثرة في هدايتهم وهو قاطع فيما قلناه. وحاصل الأمر أن الكفار قالوا: لو شاء الله أن لا نشرك لما أشركنا لكنه لم يشأ ذلك فلهذا أشركنا، فكذبهم الله عز وجل في دعوى هذا الاعتقاد ونسبهم في ذلك إلى العناد.

١٤- ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] هذا كقوله أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [فاطر: ١٤] وفي أثنائها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وذلك أن الكفار دعوه إلأى ما هم عليه من الشرك فأمر بإنكار ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي: كل ما سوى الله مربوب ولا شيء من المربوب برب فلا شيء مما سوى الله برب فإذن لا رب إلا الله، وهذا تجهيل لهم كقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الأعراف

١- قوله عز وجل لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] هذه محاورة وصورة مناظرة وقعت بين الباري جل جلاله وإبليس، إذ المعنى أن الله قال لإبليس: إن آدم أهل أن تسجد له فما منعك أن تسجد؟ فأجاب اللعين بالمنع أي: لا أسلم أنه أهل بالنسبة إلي لأني خير منه، ووجه ذلك بتفاوت ماديتهما النار والطين، فجمع في ذلك بين معصية الأمر والقدح في الحكمة والاستكبار والإصرار. وبذلك ظهر الفرق بينه وبين الملائكة حيث اعترضوا على قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فإنهم عادوا سريعًا إلى الخضوع والاعتراف، وبينه وبين آدم حيث عصى ربه فغوى فإنه بادر إلأى التوبة، وهذا آخر المناظرة هنا وهي متكررة في القرآن. وما بعدها من المراجعة ليس على جهة المناظرة إنما هو على جهة السؤال من إبليس للإنظار والتسليط على بني آدم، والأمر من الله عز وجل له بالخروج من الجنة على جهة العقوبة والطرد والإبعاد. نعم قد ذكر الشهرستاني في بعض كتبه أن إبليس بعد طرده وإبعاده قال بحضرة ملأ من الملائكة: إني أسلم يا إلهي أنك ربي وأنا عبدك لكن في نفسي شيء يشكل علي أريد أن أقوله وذلك أنه قد كان الأصلح لي وللخلق أن لا تخلقني وحيث خلقتني أن لا تستبقيني وحيث استبقيتني أن لا تأمرني بالسجود لآدم وحيث أمرتني أن لا تقضي علي بالمعصية وةحيث قضيت بها على أن لا تعاقبني وحيث عاقبتني أن لا تسلطني على آدم وإخراجه من الجنة وحيث سلطتني عليه أن لا تسلطني على ذريته أراهم وقبيلي من حيث لا يروننا، بل كنت تظهرنا لهم ليكون ذلك أجد أن يخترزوا منا، فلم كان ذلك يا رب؟ فقال الله عز وجل للملائكة: أجيبوه ! فأحموا عن الجواب فأجابه الله عز وجل وقال: إن كلامك هذا ينقض أوله آخره فإنك أولًا سلمت انك عبدي وأنا ربك ثم أنت تسألني: لم فعلت؟ أنا الذي لا أسأل عما أفعل.

قلت: هذا جواب إله قهَّار ذي قوة واقتدار ولا يظن ظان أن مستند هذا الجواب القهر والقدرة دون العدل والحكمة كما يقول بعض الجهَّال إن هذه آية الدبوس، بل لذلك حكمة بالغة إن كانت مما يظهر للبشر فهي إن شاء الله عز وجل التي نبهنا عليها

في كتاب " درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح " في الجواب عن الرسالة المنسوبة عن الحسن، وإلا فقد استأثر الله عز وجل بعلمها فلا يظهر على غيبه أحدًا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا.

وحكى الشهرستاني عقب هذا عن شارح الإنجيل أنه قال: لو اجتمع أهل السوات والأرض على دفع هذه الشبهة لم تندفع إلا بما ذكر، قال: وهذه هي أصل القول بالقدرة.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] كانت العرب تطوف بالبيت عُراة الرجال والنساء ويقولون: الله أمرنا بهذا وكذلك فعل آباؤنا، فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] وهو تكذيب لهم في الدعوى وهو معنى المنع غير أنه لم يكن في المسائل الاجتهادية تكذيبًا لاحتمال أن كل مجتهد مصيب، وانظر كيف قال: ﴿لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ولم يقل: لا يقدر، فالمأمور والمقدر متباينان لا تلازم بينهما، إذ ليس كل مأمور به مقدرًا بدليل إيمان الكفار، ولا كل مقدر مأمورًا به بدليل الكفر والمعاصي. ويروى أن القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني رئيس المعتزلة دخل على الصاحب ابن عباد، وعنده الأستاذ أبو إسحاق، فقال القاضي معرضًا بالأستاذ: سبحان المنزه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من يفعل ما يشاء، فكانت هذه مناظرة بالغة مستوفاة بين هذين الرئيسين بعبارتين وجيزتين.

٣- ومنها قوله عز وجل في صفة أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: هم كانوا دعاتنا إلى الضلال كقولهم: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] فهم أهل أن يضعف لهم العذاب على ضلالهم في أنفسهم ودعائهم غيرها إلى الضلال، فمنعهم الله عز وجل ذلك أي: ليس كما زعمتم أنهم أهل أن يضعف لهم العذاب دونكم؛ لأنهم داعون وأنتم مجيبون، فكل منكم قد صدرت عنه جنايتان توجبان له التضعيف، ضلالة في نفسه وما تعلق بغيره من دعاء وإجابة. وهذا يرجع إلى القدح في مناسبة العلة وهو

نوع منع كما سبق، ثم إن الطائفة الأولى الذين هم السادات الدعاة إلى الضلالة إما أن جوابهم طابق جواب الله عز وجل أو أنهم تنبهوا على الجواب بجوابه سبحانه وتعالى فأكدوه من جهتهم بأن قالوا للأتباع: ما كان لكم علينا من فضل، أي: لا فضيلة لكم علينا من جهة تقليل شبر أو تكثير خير تستحقون به تخفيف العذاب دوننا؛ لأنا جميعًا مشتركون في الضلال، وهذا كقوله في سورة غافر: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

٤- ومنها مناظرة نوح لقومه حيث قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي إن الله إلهكم وخالقكم موجود مستحق للتوحيد وللعبادة لأني أخشى عليكم العذاب إن كفرتم، فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠] فمنعوا كل ما ادعاه من وجود الرب واستحقاقه العبادة ولحوق العذاب لهم على الكفر، أي: لا نسلم أن ثم إلهًا حتى يستحق العبادة ولحوق العذاب لهم على الكفر، أي: لا نسلم أن ثم إلهًا حتى يستحق العبادة ويعذب على الكفر بل أنت ضال متوهم متخيل، فكان هذا منعًا منهم متضمنًا للمعارضة، فمنعها هو بقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] ثم ادعى الرسالة بقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١] لما ضللوه في الدعاء إلى الله جهلهم هو في الإعراض عن الله؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر وهو يعلمها، ثم استشعر منهم ها هنا سؤالًا قد صرحوا به في موضع آخر وهو قولهم: لو كان ما تدعيه حقًّا لما كنت أولى به منا فدعواك له دوننا ترجيح من غير مرجح، بناءً على أن استواءهم في البشرية يوجب استواءهم فيما يدعيه كقول الآخرين: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤] فأجابهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] أي: على لسان رجل منكم، وهو منع لدليلهم المذكور، أي: لا أسلم أن اختصاصي بالرسالة دونكم ممتنع ولا ترجيح من غير مرجح ولا أن استواءنا في البشرية يوجب استواءنا مطلقًا لجواز اختصاص أحد أفراد النوع بخاصة عن غيره منها كما هو مشاهد في كثير من أفراد أنواع الوجود. فحاصل ما جرى بين نوح وقومه ها هنا أمران:

أحدهما: أنه ادعى استحقاق الله عز ولجل للعبادة فمنعوا دعواه وعارضوها بما لا حاصل له وهو دعواهم أنه ضال فعارض هو هذه المعارضة بنفي الضلالة عن نفسه فبقيت دعواه الأولى سالمة. الثاني: أنهم ألزموه الترجيح بلا مرجح، فمنع لزومه له بما ذكرنا فكملت المناظرة وقامت الحجة.

٥- ومنها مناظرة هود لقومه حيث قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥] وتقرير دعواه كما سبق في قصة، فمنعوا دعواه بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] وعارضوه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي: لا نسلم صدقك فيما أخبرت به من وجود الرب واستحقاقه للعبادة، ثم إن كان ذلك قد قام في نفسك فلعله لمعارض عارضك من سفاهة رأى أو نقص عقل أو جنون، كما قالوا له في سورته: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] لا لأن ما ذكرت حق في نفس الأمر، فعارض هذه المعارضة بنفيها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧] ثم صرح بدعوى الرسالة بقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨] يستميلهم إلى أجابته بما يقتضيها من إعلامهم بنصحه لهم وأمانته؛ لأن الغاش والكاذب لا يوثق بقولهما. ثم استشعر منهم سؤال الترجيح من غير مرجح كما صرحوا به في موضع آخر فأجاب بمنع لزومه بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ ذكرهم نعمة الله عليهم ليسهل إجابتهم بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ [الأعراف: ٦٩] يعني امتداد الأجسام كقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾أي:أنعمه واحدها إلى مثل معي وأمعاء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] بذكرها؛ لأن ذكر النعم تدعو إلى شكرها بالطاعة والانقياد وترك العناد، فلم لم يتجه لهم عليه مطعن فيما ذكر أولًا استأنفوا احتجاجًا آخر وهو قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وهو احتجاج بالتقليد الذي لا يفيد، أي: لو كان ما دعوتنا إليه حقًّا لما تركه آباؤنا لكنهم تركوه فلا يكون حقًّا، ثم تهالكوا في الإصرار والامتناع فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]،

فلما علم أن الهوى غالب عليهم والضلالة متمكن منهم أخبرهم بأنهم مغضوب عليهم لا يفلحون، ثم أجابهم عن الاحتجاج بالتقلي بمنع كونه حجة في نفسه بقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف:٧١] أي: إن آباءكم ضلوا كما ضللتم، وحاصل ذلك منع الملازمة المذكورة، أي: لا أسلم أن ترك آبائكم لما دعوت إليه يدل على بُطلانه، وأجاب عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] بقوله: ﴿انْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] وهو أيضًا منع ملازمة مقدرة كأنهم قالوا: إن ما ذكرته دعوى مجردة وما تعدنا به من العذاب على مخالفتك كذب لا أصل له، بل تخوفنا به تخويفًا وتوهمنا إيهامًا ولو كان حقًّا لأمكنك الإتيان به لكن ذلك لا يمكنك فليس حقًّا، فمنع انتفاء اللازم، وقال: انتظروا فسيأتيكم ذلك، فجاءهم العذاب وهلكوا.

٦- ومنها مناظرة صالح لقومه حيث قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣] أي: هو أهل للعبادة والتوحيد فاعبدوه، كما سبق في قصة نوح، ثم شفع دعواه بالمعجز الدال على صدقه فقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣] أي حجة تبين صدقي فيما ادعيت: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أي: علامة على صحة ما أقول: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] ثم ذكرهم نِعم الله عز وجل عليهم كما ذكر في قصة هود فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٤] أي: أنزلكم وأقركم ﴿فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا﴾ وهي المواضع السهلة المعتدلة ﴿قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] هذا آخر تقرير صالح حجته. وكان قوم صالح طائفتين إحداهما مصدقة له والأخرى كافرة مستكبرة، فمنعت هذه دعواه في سياق خطاب الطائفة المصدقة بصيغة الاستفهام الإنكار، وذلك قوله عز وجل: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا﴾ [الأعراف: ٧٥] يعني المستضعفين المؤمنين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦] يعني من دعوى صالح: ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: لا نسلم صحة

دعواه ولا صدقه فيما ادعى. ثم رتبوا على النع مقتضاه ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] وهذه صورة ملازمة باطلة تقريرها ما سبق في نظيرها من قصة هود، وإن شئت قررها بالطريق الحملي هكذا: قالوا: كل رسول صادق وكل صادق يأتي بما يعد وأنت لا تقدر على الإتيان بما وعدتنا فلست برسول ولا صادق، والمقدمتان ممنوعتان، أما الأولى، فمنقوضة بيونس مع قومه فإنه صادق وتخلف نوقوع ما وعدهم به من العذاب بهم لعناية الرب بهم واستدراك هم بالتوبة.

والثانية: يرد عليها سؤال الاستفسار ثم القول بالموجب. أما الأول فيقال: إن أدرتم بأني لا أقدر على الإتيان بما وعدتكم أني ليست بصادق فيما أخبرتكم فممنوع وسيأتيكم فانتظروا، وإن أدرتم اني لا أستقل بالإتيان به فأنا قائل بموجبه فإن الآتي به هو الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، وأنا سفير مبلغ وذلك لا ينفي صدقي. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] أي صرعى هالكين ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٩] يعني صالحًا ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] هذا يحتمل أنه قاله وهو واقف على مصارعهم مخاطبًا لهم فيكون كخاطبة نبينا عليه السلام لأهل قليب بدر، ويحتمل أنه لم يكن واقفًا عليهم ويكون ذلك خطابًا ذهنيًا أي لأشخاصهم التي في ذهنه، ومأخذ الاحتمالين من قوله: (تولى) أي: أعرض عنهم، هل ذلك الإعراض بقلبه دون جسده فيتجه الأول أو ببدنه أيضًا فيتجه الثاني؟

٧- ومنها مناظرة لوط لقومه حيث قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] إلى قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١] أي: أنتم على منكر وفاحشة فاتركوها، فأجابوا بمنع أنه فاحشة حيث قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] يعني مما لا يستحق أن يتطهر منه وينكرون ما ليس بمنكر، ولما كان هذا منعًا فاسدًا لم يكن له جواب إلا نزول العذاب قال الله عز وجل: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: ٨٣، ٨٤].

٨- منها مناظرة شعيب لقومه حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وتقرير الدعوى ما سبق ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ولم يذكر له ولنوح وهود معجزًا محسوسًا كناقة صالح، وعصى موسى ونحوهما، فالظاهر أن بينات هؤلاء التي قامت بها حجة الله على قومهم هي المناظرة الجدلية فقط، فإن ثبت هذا ولم يدل دليل على خلافه فهو مما يدل على شرف فمن الجدل والمناظرة حيث كان مستفادًا بإقامة الحجة على الخلق في قصص هؤلاء النبيين. ثم إن شعيبًا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر إلى قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] فكذبوه ومنعوا دعواه وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] يعني لأنها الحق وما جئتنا به باطل وثبوته غير مسلم، قال شعيب: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] أي: أتطلبون رجوعنا إلى ملتكم وإن كرهنا؟ يعني: إننا لا نرجع عما نحن عليه مختارين وإن رجعنا مكرهين لم تنتفعوا بنا؛ لأن قلوبنا ليست معكم. ولما كان حاصل جواب قومه له منعًا لصحة ما دعاهم إليه ودعوى لصحة ما هم عليه كأنهم قالوا: ما جئت به باطل وإنما الحق ما نحن عليه منعهم هذه الدعوى بقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: لا أسلم أن ما أنتم عليه حق فكيف أعود إليه؟ وإذا لم يكن ما أنتم عليه حقًّا فالحق ما أنا عليه إذ ليس بين الحق والباطل واسطة ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] هذا مما يحدل على جواز الكفر على الأنبياء عقلًا، وربما منعه قوم؛ لأن شعيبًا نفاه وعلقه بالمشيئة ولو لم يكن مقدورًا لما تعلقت به المشيئة، ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: إن كان في علم الله أن نرجع في ملتكم رجعنا وإلا فلا نرجع، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: يفعل فينا ما يشاء من ثبات أو رجوع، ثم لما أيس منهم دعا الله عز وجل بالحكم بينه وبينهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ أي: احكم، ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] ويقال: للحاكم فتَّاح بلغة اليمن.

٩- ومنها مناظرة موسى لفرعون حيث قال موسى مدعيًا للرسالة: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] ثم أكد ذلك بقوله ﴿حَقِيقٌ﴾ أي: يحق ويجب ﴿عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥] ثم أخبره أن معه برهانًا على صحة دعواه فقال: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥] فقال فرعون

مطالبًا لموسى بالحجة: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ أي: علامة على صدقك ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ اظهرها لنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦] في دعواك كما يقول المعترض للمستدل: ما حجتك على ما ادعيت؟ فأظهر موسى حجته كما يبادر المستدل عند المطالبة بالدليل إلى إبدائه ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ إلى الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] أي مظهر لصدق موسى ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني من جيبه بعد أن أدخلها فيه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨] لها شعاع كشعاع الشمس. فثبتت دعواه بإقامة البرهان وبقي استقرارها موقوفًا على انتفاء المعارضة، فاعترض فرعون وقومه على دليله بالمنع، فقالوا: لا نسلم أن ما جئت به برهان إلهي حقيقي في نفس الأمر، بل هو شبهة سحرية حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] ثم أجمعوا على معارضته بمثله في زعمهم من السحر فجمعوا السحرة فجاءوا من السحر بشيء عظيم يقصدون به معارضة حجته لتبطل دعواه. فبين لهم أن ما جاءوا به لا يصلح معارضًا له فألقى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أي تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] أي يهوهون به ويكذبون فيه، فظهر بطلان معارضتهم وبقي برهان موسى سالمًا عن معارضة مستقلًا بإثبات الدعوى، ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أي: حينئذٍ ﴿وَانْقَلَبُوا﴾ يعني السحرة رجعوا عن رأيهم في خلاف موسى ﴿صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] استصغروا أمرهم في عظمة الله وقدرته، ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ يعني إلى الأرض ﴿سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] وها هنا تمت مناظرة موسى لفرعون فاتهم فرعون سحرته فقال: إنكم لم تعجزوا عن معارضة موسى بل واطأتموه على غلبتي وفضيحتي بين رعيتي، ويقال: كانت شبهته في ذلك أن رؤساء السحرة الذين آمنوا بموسى كانوا من بني إسرائيل قد استخدهم في تعلم السحر وأعدهم لمهماته، فقال لهم: أنتم من قوم موسى فملتم معه علي، فردوا عليه ذلك، وقالوا: ليس الأمر كما زعمت بل هذا الأمر أمر إلهي لم نقدر على مقاومته ولا طاقة لنا لمعارضته ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] والله أعلم بالصواب.

ولا أعلم في سورة الأنفال شيئًا من هذا الباب.

ومن سورة التوبة

١- قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] يقال: إن النبي عليه السلام لما رأى إبراهيم استغفر لأبيه بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] تأسى به، وقال: لأستغفرن لأبي طالب ما لم أنه عنه، وقالت الصحابة: ونحن نستغفر لآبائنا إذ هذان نبيان يستغفران لكافرين، فصار تقدير الكلام منهم: إن جاز لإبراهيم ومحمد أن يستغفرا لآزر وأبي طالب جاز لنا أن نستغفر لآبائنا وقد جاز هناك فليجز هنا. بيان الشرطية أن الجميع كفار فإذا جاز الاستغفار لبعضهم جاز للباقي إذ حكم المثلين واحد، وهذه الملازمة صحيحة لكن ثبوت الملزوم وهو جواز الاستغفار من إبراهيم لأبيه ليس صحيحًا مطلقًا، فأجاب الله عنه بالفرق بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] أي: إن استغفار إبراهيم لأبيه كان لمعنى لسي موجودًا في استغفاركم لآبائكم، وذلك أن أباه كان وعده أنه يؤمن فاستغفر له بناءً على هذه الموعدة، فلما لم يف له بما وعد وأصر على على الكفر واللدد وتبين له أنه عدو لله بموته على كفره تبرأ منه. وأنتم لم يوجد من آبائكم وعد بالإيمان يسوغ لكم الاستغفار لهم، وقد تبين لكم أنهم أعداء الله بموتهم على كفرهم فليس لكم أن تستغفروا لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة يونس

١- قوله عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [يونس: ٦٨] الآية. قد سبق الكلام عند نظيرتها من سورة البقرة، ومنها قصة موسى مع آل فرعون وقد سبق في الأعراف والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة هود عليه وعلى سائر الأنبياء السلام

١- قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦]. هذه دعواه الرسالة ودعاؤه إلى التوحيد وتقريرها ما سبق في الأعراف: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [الأعراف: ٢٧] الآية. هذه معارضة من قومه له كأنهم قالوا: ما ذكرت من دليل الوحدانية وإن دل أو أمكن أن يدل على ما ذكرت لكن عندنا ما يدل على أنه غير صادق، وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنك بشر مثلنا والبشر لا يصلح لحمل رسالات الإله.

الوجه الثاني: أنه لا يتبعك على قولك إلا أراذل الناس وضعفاؤهم ولو كان ما تدعو إليه حقًّا لاتبعك الأشراف والأكابر، لكن اللازم باطل فالملزوم كذلك.

الوجه الثالث: أنه لا فضل لك ولأصحابك علينا من حيث نحن أناس مثلكمفاختصاصكم بالرسالة دوننا ترجيح من غير مرجح. قلت: وهذه شبه واضحة البطلان وقد أجاب نوح عنها واحدة واحدة على النظم، والترتيب.

أما الأولى فأجاب عنها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨] الآية. ومعناه: أخبروني: إذا خصني الله عز وجل بالرسالة دونكم وآتاني من رحمته ودلائل هدايته ما أخفاه عنكم أي مُحال يلزم من ذلك أو أي شيء يمنعه؟ وحاصله منع المقدمة الثانية من دليلهم كأنه قال: أما أني بشر مثلكم فمسلم وأما أن البشر لا يصلح أن يحمل رسالة الإله فممنوع منعًا مطلقًا أو مفصلًا، بأن تقول: هذه مقدمة مهملة في قوة الجزئية وحينئذٍ لا ينتج الشكل الشكل إذ شرطه كلية كبراه ويصير تقديره: أنت بشر مثلنا وبعض البشر لا يصلح لحمل رسالة الإله. أو تقول: إن أردتم أن بعض البشر لا يصلح لذلك فمسلم إذ الكفار والشياطين مثلكم لا يصلحون له والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وإن أردتم أن كل بشر لا يصلح لذلك فلا نسلم، وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] أي: أنا لا أدعوكم إلى الحق دعاء إكراه بل دعاء اختيار إن أجبتم وإلا فالله أخبر بحالكم ومآلكم،

وفيه نوع من تهديد ووعيد قد صرح به فيما بعد. وأما شبهتهم الثانية فأجاب عنها بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود:٢٩] الآية. ومعناه إني إنما أدعوكم إلى الحق لذاته مقربًا إلى الله عز وجل وليس قصدي عليه أجرًا ولا نأكل به أموال الناس، وحينئذٍ لا فرق عندي بين أن يتبعني أراذل الناس أو أشرافهم كلهم عندي في الحق سواء، ولست أطرد عني من آمن بالله وأنا أدعو إليه. وفيه أيضًا نفي لتهمة الكذب عنه، ثم جهلهم قبالة تكذيبهم له فقال: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] أحكام الله في خلقه وتزعمون أن السعادة بما تظنونه شرفًا عندكم وأن الهداية تابعة للرياسة وليس الأمر كذلك، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠] أي: إن الله عز وجل أرسلني لأجمع له الناس على توحيده وعبادته فإذا نفرتهم عنه بالطرد عني كنت عاصيًا أستحق عقوبة الله ولا عاصم لي منه، ولا ناصر فأنا لا أفعل ذلك. وأما شبهتهم الثالثة فأجاب عنها بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] ومعنى ذلك: إني لا أقول إن اختصاصي عليكم بالرسالة وترجيحي عليكم فيها لفضيلتي عليكم، وأنا أسلم أن ليس لي عليكم من فضل لكن الله عز وجل هو الذي خصَّني ورجحني ولله عز وجل ترجيح أحد المثلين بما يشاء من حكمته. ثم لما كان القد في اتباعه بكونهم أراذل صعب عليه لكونه طعنًا فيه وفيهم، فأردفه بما يقويه ويقرره فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١] أي: ليس كونهم أراذل مما يمنعهم من إدراك السعادة إن أرادها الله بهم؛ لأن الأعمال بالنيات والسعادة مرتبة على التوفيق للطاعة، فمن الجائز أن قلوب هؤلاء سليمة وأنهم يطيعون فيسعدون و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١] فيجازيهم عليه ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن طردتهم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١] لأني وضعت الطرد غير موضعه، إذ الله عز وجل أرسلني لأجمع لا لأفرق ولأؤلف لأنفر. وقد وقعت هذه الواقعة بعينها لنبينا عليه السلام حيث قال له الكفار: أطرد الصعاليك عنك لنجالسك! استكبارًا منهم على المساكين، فقال الله عز وجل له: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثم إن قوم نوح لما أفحموا وأجاب عن شبهاتهم هذه الأجوبة السادة لجئوا إلى غير ملجأ فقالوا: ﴿يَا نُوحُ

قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] وتقريره: إنه قد طال الخطاب بيننا وبينك وطالت مخالفتنا لك فلو كانت صادقًا لأتيتنا بما وعدتنا من العذاب فإن كنت صادقًا فأتنا به، فأجاب بمنع الملازمة حيث قال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] كأنه قال: لا أسلم أن إتياني إياكم بما أعدكم به من العذاب لازم لصدقي حتى ينتفي بانتفاء إتيان العذاب، وإنما يلزم ذلك لو كان تعذيبكم إليَّ فعجزت عنه لكن ليس الأمر كذلك، إنما تعذيبكم إلى الله فإن شاء جاءكم العذاب ولن تعجزوه وإن لم يشأ فلا ملام عليَّ أنا لأني سفير بينكم وعبد مأمون لله عز وجل. وقد أجاب نبينا عليه السلام حين سئل الآيات بنحو هذا الجواب حيث قال مرة: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] أي: ليست إلي حتى آتيكم بها، ومرة قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وهذا كان في أول الأمر كما سبق ثم ظهرت آياته، ثم إن نوحًا صلى الله عليه وسلم قرر أنه واسطة محضة لا تأثير له مع إرادة الله وقدرته في إرسال عذاب ولا في هداية ولا إضلال، فقال: إنما علي نصيحتكم وقد نصحتكم ما أمكنني ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ويهلككم بضلالكم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ المتصرف فيكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] فيفعل بكم ما أرا، وهذه الآية بذكرها الفقهاء والنحاة شاهدًا على اعتراض الشرط على الشرط أعني قوله: ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤] ومثاله من مسائل الفقه قوله: أنتِ طالق إن قمتِ إن قعدت، أو إن شربت إن أكلت، فيقتضي ذلك تقديم المؤخر وتأخير المقدم كأنه قال: أنتِ طالق إن قمت بعد أن قعدت، وشربت بعد أن أكلت، وموضع تقريره غير ها هنا.

٢- ثم إن الله عز وجل اعترض قصة نوح في أثنائها بخطاب نبينا عليه السلام فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]. ثم عاد إلى تمام قصة نوح وذكر ما ترتب على إصرارهم وامتناعهم وهو إياس نوح منهم والأخذ في أسباب هلاكهم، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] أي: لا يلحقك من ذلك بأس أو بؤس، وانقطع جدال الدعاء بينهم وبين نوح وإنما كان بعد ذلك ضرب من الجدل بينهم عند

عمل السفينة، حيث كان يصنع الفلك ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] فكان يعارضهم على سخريتهم ويقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]، ومن هذه محاورة وقعت بين نوح وربه عز وجل وذلك أن الله عز وجل قال لنوح: ﴿احْمِلْ فِيهَا﴾ أي في الفلك ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠].

فلما غرق ابن نوح الكافر كما في القصة قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] أي: إنك أغرقت ابني وهو من جملة أهلي الذين وعدتني أن تنجيهم. وكان هذا من نوح صورة جدال في ابنه كما جادل إبراهيم في قوم لوط لكن هذا السؤال ليس بوارد من وجوه:

أحدهما: أن نوحًا ظن أن قوله عز وجل: (احمل فيها أهلك) وعد منه بنجاة أهله، وليس ذلك بوعد إنما وعده بأن من حمله من أهله نجاه، لكن نوح لم يحمل ابنه المذكور معه فانتفى الإنجاء فيه لانتفاء شرطه.

الوجه الثاني: أن (أهلك) صيغة عموم ودلالته على كل فرد منه ظنية لا قطعية والعموم يحتمل التخصيص، فقد كان من الواجب حيث أغرق الله ابنه أن يخص قول الله بفعله ولا يعترض بفعله على قوله.

الوجه الثالث: أن الله عز وجل استثنى من أهل نوح من سبق عليه القول.

غاية ما في الباب أنه لم يعين المستثنى فكان ينبغي أن يُحمل هذا المستثنى المجمل على ذلك الابن المعين بالإغراق، فلما كان سؤال نوح لا يرد على خبر الله عز وجل لهذه الوجوه أجابه بمنع وروده حيث قال: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦] قيل: ليس من أهلك الذي وعدتك بإنجائهم، وقيل: ليس من أهل دينك وملتك، وقيل: ليس نسبه لاحقًا بك، وفي هذا نزاع كثير استقصيته في "شرح المختصر في أصول الفقه " حيث وقع الاستشهاد بهذه القصة على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، ثم أغلظ له القول بقوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] قيل: إن نوحًا بقي لأجل هذا الكلام خمس مائة سنة

يبكي حياءً أو مخافة من ربه عز وجل، ثم اعتذر واستغفر بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

٣- ومنها مناظرة هود لقومه حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وشدد عليهم الإنكار بقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] أي: كاذبون في دعواكم أن لله شريكًا يعبد، ثم نفى عن نفسه ظنه الكذب والتهمة بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، ثم أمرهم بالاستغفار والتوبة وإنهما سبب الخير حيث قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] الآية. فأجابوه بأن دعواك لا حجة عليها، وهو سؤال المطالبة بالدليل. ثم عارضوه بأنك مجنون قد مستك آلهتنا بسوء، فهو الذي أوجب لك هذا وإلا فلا حق معك حيث قالوا له: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٣، ٥٤] أي: يمس في عقلك، فأجابهم هو بالإصرار على دعائهم إلى الحق والقدح فيما ادعوه عليه حيث قال: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]. أي: بادروا بي إن استطعتم:﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] أي: هي في رباط قدرته لا يصدر منها فعل إلا بإراداته ومشيئته، أنتم وغيركم من الدواب. يريد: إني لا أخافكم على نفسي إن كان الله عاصمي منكم، وإذا ثبت هذا فيكم وأنتم حيوانات ودواب حقيقة تتصرفون بالإرادة فآلهتكم الجماد أولى أن لا أخشى منها على نفسي وأنتم كاذبون في أنها اعترتني بسوء. ثم أكد حقية ما هو عليه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. يعني: وأنا أدعو إلى ذلك الصراط المستقيم فأنتم إذن ضالون في مخالفتي.

فإن قيل: قد أقرهم على قولهم له ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] فإن كانوا صادقين فدعواه مجردة لا تلزمهم الإجابة إليها، وإن كانوا كاذبين فلِمَ لم يرد عليهم ويذكر بينته؟ قلنا: قد سبق في الأعراف أن نوحًا وهودًا وشعيبًا لم يذكر لهم معجز محسوس، فإن ثبت ذلك لهم بطريق يصح اندفع هذا الإشكال وإلا فبينتهم الفلج في الجدال، ثم هذا

السؤال معارض بأنه لو أقرهم على قولهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ اعترافًا منه بما قالوا لما عاود محاجتهم ومناظرتهم، بل كان يترك ذلك ترك انقطاع، ولما لم يفعل ذلك دل على أنه لم يعترف بما قالوه.

وقد بينا أنه أجاب عن اعتراضهم على دعواه فبقي دليله – وهو استحقاق الله عز وجل للإلهية والتوحيد على ما سبق بيانه – سالمًا عن معارض وذلك في ثبوت الدعوى. ثم إن كان المورد لهذا السؤال خارجًا عن أهل القرآن ككافر أو زنديق فجوابه ما ذكرناه، وإن كان مسلمًا زدناه دليلًا آخر وهو أن الله عز وجل أهلك قوم عاد بتكذيبهم هودًا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٨ -٥٩]، وقد ثبت بنصوص القرآن والإجماع أن الله عز وجل لم يعذب أحدًا حتى أقام عليه الحجة، وذلك يوجب كذبهم في قولهم: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وفلج هود عليهم في المناظرة.

٤- ومنها مناظرة صالح لقومه حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١]، ادعى لربه استحقاق العبودية ودل عليه بما أسبغ عليهم من نعمة الإنشاء والاستعمار في الأرض فقال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وهو نظير قوله في الأعراف: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ثم أمرهم بالاستغفار من كفرهم والتوبة إلى الله منه، وسهل عليهم الدخول فيها بتقريب طريقها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ يعني مما دعاه واستغفر ﴿مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] له قابل لتوبته.

فلما تمت دعواه وحجته ووعظه وتذكيره عارضوه بأمور:

أحدها: تعنيفه على دعائه لهم بقولهم ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] أي: كنا نرجوك لمعاضدتنا على أمورنا وقد اختلف ظننا وبابينتنا في أهم الأشياء عندنا. أو يكون المراد: قد كنا نرجو أنك عاقل كامل فأخلفت علينا، فعلى هذا هو قدح في عقله فهو كقولهم في الأعراف: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وعلى الأول هو قدح في مودته لهم وسيرته معهم.

الثاني: إنكارهم نهيه لهم عما كان يعبد آباؤهم بقولهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] وحاصله يريجع إلى معارضته بالتقليد كما سبق في الأعراف.

الثالث: المنع التشكيكي بقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢]، أي: لا نسلم صحة ما دعوتنا إليه ونحن شاكون فيه مرتابون. وفي هذا لمحة – وإن خفيت – من سؤال الترجيح بلا مرجح كأنهم قالوا: نحن مرتابون في تخصيصك بالنبوة دوننا، فأجاب صالح عن هذا بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، أي: أخبروني ! إن كان الله خصني بالرسالة دونكم أي محال يلزم منه، والمرجح لذلك هو الله التام المتصرف في خلقه.

وحاصله يرجع إلى منع أن ذلك ترجيح بلا مرجح، وحينئذٍ لا وجه لارتيابكم إلا جهلكم أو عنادكم. فأجاب عن شبهة التقليد بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣]، أي: إن الله أمرني بتبليغ رسالته إليكم فإن خالفته وتابعت ما عليه وآباؤكم حل بي عقاب الله وأنتم لا تنفعوني ومن بأسه لا تنصروني، على أن التقليد في نفسه باطل، ثم صدع بالحجة القاهرة الباهرة فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود: ٦٤] ناقة عظيمة كوماء خرجت من صخرة صماء تشرب ماءهم وتعوضهم عنه لبنًا، فقامت حجته بذلك وأصروا هم على الكفر والعناد فعقروها فأصبحوا نادمين.

٥- ومنها جدال إبراهيم عن قوم لوط في قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وتلخيص القصة أن الملائكة لما أرسلوا لإهلاك قوم لوط مروا بإبراهيم فارتاع منهم، وقال: ﴿سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [النازعات: ٢٥] ثم أضافهم بالعجل السمين لظنه أنهم آدميون، ثم بشروه بإسحاق وأخبروا أنهم يريدون عذاب قوم لوط: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢] فكيف تهلكونه؟ أخذًا منه بعموم لفظ أهلها، فأجابه الملائكة بأنا سننجيه وأهله وإن المراد تخصيص أهل القرية بهم، فكان هذا من جملة الجدال. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤] قال لهم يومئذٍ: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا: إن كان فيهم خمسون من المسلمين لم نعذبهم، قال: أربعون؟ قالوا:

وأربعون، قال: ثلاثون؟ قالوا: وثلاثون، حتى بلغ عشرة، قالوا: وإن كان فيهم عشرة، قال إبراهيم: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير. قال معمر، عن قتادة قال: بلغنا أنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله من ذلك.

قلتُ: فهذه مجادلة إبراهيم في قوم لوط ولم يذكر منها في القرآن إلا ما تضمنته سورة العنكبوت قود تلوناه وهو جدل في الحقيقة على ما رسمناه في حد الجدل. ومعنى (يجادلنا) أي: يجادل رسلنا، أو يجادلنا بواسطة الرسل، والمعنى قريب. قال الله عز وجل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: عن جدالك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦]، قلت: وهذا ألطف من رده على نوح حيث جادل في ابنه فيشبه أن يكون إبراهيم أكرم على الله من نوح، فرفق به في الخطاب دونه ويشبه أن يكون جدال إبراهيم أرفق من جدال نوح، فاستدعى كل واحد منهما جوابًا بحسب جداله ويحتمل غير ذلك.

قلت: أما محاورة لوط لقومه في هذه السورة فهي جلاد لا جدال، وحاصلها أنه أراد منع ضيفه منهم فكابروه عليهم فأهلكوا، وهذا بخلاف قصته في الأعراف وغيرها، فإن تلك المحاورة كانت في وقت دعائهم لا في وقت إهلاكهم، وعند رؤية العذاب لا ينفع الخطاب ولا يسمع الجواب.

٦- ومنها جدال شعيب لقومه وهو من أحسن الأنبياء خطابًا وجوابًا حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: "ذاك خطيب الأنبياء "[1] ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤] دعا إلى التوحيد الذي هو الأصل والأس، ثم نهى عن المعاصي الفروعية التي كانوا يتعاطونها فقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤] يعني – والله أعلم- من جهة المال والثروة فلا حاجة لكم إلى الظلم والبخس. ثم خوفهم بقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، أي: مهلك إهلاكًا عامًّا. ثم كرر عليهم النهي من البخس والتطفيف لكثرته فيهم وعموم مفسدته في الآية بعدها فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥] ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [هود:٨٦] أي: ما يبقى لكم بعد إيفاء الكيل خير لكم منه مع البخس؛ لأن الحلال خير

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦٢٠، رقم ٤٠٧١).

من الحرام ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] تحريض وتهييج لهم على الإنصاف ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] أي: أنا مبلغ لا ملزم بل الله يتولى مكافأتكم على ما تعملون من خير أو شر، وذلك شأن الرسل. وها هنا انتهت دعواه، واحتجاجه عليها بأمور مشهورة مألوفة لا ينكرها إلا معاند أو ذو عقل فاسد، فعارضوه بشبهة التقليد وشبهة استقلالهم بالتصرف.

أما الأولى فهي قولهم: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود:٨٧] أي: لو كان باطلًا ما فعله آباؤنا، ولو كان ما تقوله حقًّا لما فاتهم ولا سبقتهم إليه. وكان شعيب كثير الصلوات فلذلك ذكروا صلاته، كما قالت اليهود لمريم: يا أخت هارون، أي: يا مشبهته في كثرة العبادة، وفي ذلك إشارة منهم إلى سؤال فساد الوضع وهو تعليق الشيء على ما لا يناسبه كأنهم قالوا: إن صلواتك تقتضي كف الأذى واشتغالك بنفسك عنا وأنت تؤذينا بإنكارك علينا ما ليس قبيحًا منا وتسفه أحلامنا وتضلل أسلافنا. وكذلك قول الآخرين: إن مشابهتك لهارون في العبادة تقتضي العفاف، وظنًا منهم بمريم سوء الاقتراف – عليهم اللعنة وصلوات الله على مريم وابنها وسائر النبيين والصالحين.

أما الثانية: فلأنهم اعتقدوا أنهم مطلقو التصرف في أموالهم يتصرفون فيها كيف شاءوا بالربا والبخس وغيره، وأن ليس لأحد معارضتهم في ذلك ولا إنكاره عليهم. والشبهتان ظاهرتا البطلان وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] قيل: معناه عن نفسك، وقيل: تهكم واستهزاء.

والذي يظهر أنه تقرير لما أشاروا إليه من فساد الوضع، أي: أنت حليم رشيد فكيف تتكلف ما أنت منه غني وتؤذينا بغير حق؟ فأجابهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: ٨٨] أي: إن ما ادعيته من النبوة والرسالة جائز الوقوع لا محالة يلزمه، وقد أوضحت الحجة عليه بما تقبله العقلاء ولست أريد أذاكم ولا عنتكم حتى أنهاكم عن شيء وأنفرد بفعله دونكم. ويشبه أنه فهم عنهم أنهم اتهموه بأنه يريد منعهم عن التكسب بالبخس وينفرد هو به، ولهذا قال: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] أي: حلالًا لا بخس فيه ولا ربا ولا غيره مما تفعلون أنتم، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي: ما أريد ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: بينكم وبين ربكم ومن تظلمونه من الناس فإن الظلم ينفر

الناس منكم فيفسد ذات بينكم ويسخط الله عليكم فيعذبكم. ثم خوفهم طول النقمة بهم كغيرهم فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود: ٨٩] أي: لا يكسبنكم خلافي لكم فيما أنتم عليه وإنكاري له (أن يصيبكم ما أصاب) أي: مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود: ٨٩] وإن كان قد بعد خبر هؤلاء عنكم ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] لأن الأمم الثلاث المذكورة كانوا قبل إبراهيم بزمان طويل وقوم لوط كانوا في عصر إبراهيم وقوم شعيب بعد ذلك بقريب قبل موسى، وإنما اجتمع موسى بشعيب بعد هلاك قومه وتبليغ رسالات ربه في أواخر عمره، والله أعلم. ثم أمرهم بالاستغفار والتوبة وقرب ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] أي: يرحم من اعتذر إليه ويتودد إلى من يتودد إليه. ثم بعد هذا التلطف كله بهم صادموه بالعناد المحض فقالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: لا نعلم صحته ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١] قيل: ضعيف البصر، وقيل: ضعيف العقل، وقيل: ضعيف السياسة لصالح الدنيا. قلت: وهذا يشبه قول عامة زماننا لمن قام فيهم بحق يباينهم فيه: فلان ما له عقل معيشي، أي: عقل يعيش به بين الناس وعند التحقيق يريدون به أمرًا صادقًا على النفاق، وقيل: ضعيف الجانب لاعتزال الناس عنك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ يعني عشيرتك وكانوا منهم ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ قتلناك بالحجارة وهي شر القتلات ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] فأجابهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ﴾ [هود: ٩٢] أي: نبذتم أمره وراء ظهوركم، ينكر ذلك عليهم إذ حقوق الله عز وجل ومراقبته يجب تقديمها على كل شيء، ثم توعدهم فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢] ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣] أي استمروا على ما أنتم عليه تهديدًا كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام:١٣٥] أي على ما أنا عليه من قيامي بالحق وإنكاري للباطل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: ٣٩] أي: يهينه ويهلكه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾في دعواه منا ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ ما أتوعدكم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] مراقب لذلك أو شاهد عليكم عند الله بما تعملون، فكيف إذا جئنا من كل أ/ة بشهيد وكنت شهيدًا عليهم ما دمت فيهم والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة يوسف عليه السلام

١- مراجعة بني يعقوب له في شأن يوسف وهو ضرب من الجدل فإنهم قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١١، ١٢]، وأهموه أن في ذلك مصلحة وتأكيدًا للألفة فمنهم، إن في ذلك مصلحة بما وقع في نفسه من أكل الذئب له حيث قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، فعارضوا ذلك باستبعاده والبعيد لا يعلق به حكم ولا يرتبط به حزم حيث قالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] أي: مع كثرتنا وقوتنا واحترازنا عليه يبعد جدًّا أن يصل الذئب إليه، ولقد غروه في ذلك، والحزم الاحتراز مما أمكن وإن بعد بكل حال.

٢- ومنها احتجاج يوسف في دعائه الفتيين اللذين قصَّا عليه الرؤيا حيث قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وهذا دليل لطيف المأخذ على التوحيد؛ وذلك لأن استقلال الواحد بالغلبةو القهر وضبط العالم يدل على الكمال والقوة، وذلك مناسب للإلهية، أما الآلهة فإنهم مع تعددهم إما مختلفون متعاندون أو متفقون، والأول يقتضي فساد العالم بينهم لتعاندهم بدليل التمانع المذكور في سورة الأنبياء، والمنون، والثاني يقتضي اتصاف كل واحد مهم بالنقض والضعف حيث احتاج إلى معاضد ولم يستقل وحده. ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: أنتما وقومكما ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ من الأوثان ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: حجة وبرهان ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فوحدوه ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠] الطريق المستقيم، لكن صاحبا يوسف كانا محتاجين إليه ليعبر لهما رؤياهما فلم يناظراه بالسؤال والجواب بل كان ذلك منهما بالاستصحاب.

ومن سورة الرعد

١- قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: لو كان صادقًا لجاء بآية من ربه تصدق لكن لا فلا. وقد تكرر هذا السؤال في القرآن وأجيب عنه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ [الرعد: ٧] أي: أنت مبلغ وليس لك الاستقلال بإنزال الآيات، إنما ذلك إلى الله. ثم أكد ذلك في آخر السورة بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] وهو معنى قوله عز وجل: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس:٢٠].

وحاصل هذا الجواب يرجع إلى سؤال فساد الاعتبار والوضع؛ لأن به تبين أن الكفار سألوه ما ليس إليه، وهو تكليف ما لا يطاق فهو مصادم لصريح العقل.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾هذا سؤالهم بالتكذيب والقدح في النبوة، فقيل في الجواب: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، والإشارة بذلك إلى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أهل الكتاب وشهد بصدقه عليه السلام، وهو المراد من قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ [الأحقاف: ١٠] ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٩٤] ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] ونحو ذلك، ولا شك في أن من شرعنا وهو فصل الخطاب أن البينة على المدعي واليمين على المنكر إذا لم تقم بينة. والنبي عليه السلام لما ادعى الرسالة فأنكروها أقام البينة منهم وشهد شاهد من أهلها، وكذلك حكم المناظرة إذا منع المعترض للحكم شرع المستدل في تقرير الدليل – والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة إبراهيم عليه السلام

١- مناظرة الرسل لقومهم حيث قال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقد سبقت مناظراتهم مفصلة في الأعراف وهود، وسيأتي إن شاء الله عز وجل في مواضع أخر، لكنها هنا ذكرت مجملة (فردوا) يعني الكفار ﴿أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩]، قيل: عضوا أيديهم بأفواهم غضبًا، وقيل: أشاروا إلى الرسل أن اسكتوا ! والأشبه باللفظ والسياق أنهم وضعوا أيديهم في أفواههم حيرة ودهشًا وتعجبًا مما جاء به الرسل كما يضع الإنسان يده على خده أو في فمه أو ينكت في الأرض حيرة لأمر يدهمُهُ لا يدري ما وجهه، وقالوا للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]، أي: نحن كافرون بما جئتم به مرتابون في صحته فأجابت، الرسل بقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ﴾ أي: إن مثل هذا لا شك فيه لوضوح دليله، فأنتم أيها الكفار سوفسطائية تنكرون الضرورات، ثم استدلوا على ما نوزعوا فيه بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذه الصنعة تدل على الصانع دلالة الأثر على المؤثر والملزوم على اللازم، ثم رغبوهم في الإيمان به بقولهم: ﴿لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾. وهذا ممزوج من ترغيب في التأخير وترهيب بانقضاء الأجل والعود إليه فيكافئ كلًّا بعلمه. ﴿قَالُوا﴾ يعني: الكفار ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم:١٠] أوردوا على الرسل سؤال الترجيح بلا مرجح وشبهة التقليد ثم طالبوهم بالبرهان على صدقهم كما سبق تقريره. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أي: أجابوا عن شبه الكفار أما عن قولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فبالقول بموجبه، قالوا: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ولكن لماذا يلزمنا الترجيح بلا مرجح؟ فإن الله عز وجل يمن على من يشاء من عباده ويخصه برحمته وكرامته، فنحن خصنا بذلك دونكم ولا مانع من ذلك عقلًا ولا عُرفًا.

وأما شبهة التقليد فظاهرة البطلان ويحصل جوابها من جواب الشبهتين الأخريين. وأما عن المطالبة بالبرهان فبقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي: إن أذن لنا في إظهار البرهان رأيتموه إلا فنحن لا نستقل بذلك،

ويحتمل أن يكون قولهم تقريرًا له وتوكيدًا، أي: نحن مثلكم في العجز عن إظهار الآيات والبراهين، ولكن الأمر في ذلك إلى إذن الله وقدرته وإقداره لنا على ذلك، فيرجع حاصل جوابهم إلى القول بالموجب في أنهم بشر مثلهم وإلى أنهم سألوا ما لا يطاق وطلبوا السلطان من غير محله، فلما ظهرت حجة الرسل على قومهم. جاءوهم بطريق العناد والبغي فقالوا للرسل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] كما سبق في قول قوم شعيب له في سورة الأعراف، فلما أفضى الأمر إلى المغالبة قابلهم الله بغلبته: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وحاصل ذلك كله أن الله عز وجل قابل احتجاج الكفار بحججه وافتراهم بنقمته فغبلهم في المقامين وهو الواحد القهار.

٢- ومنها جدال الأتباع والمتبوعين في النار حيث قال: ﴿الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن اغتررنا بكم فلم تنفعونا الآن عند الحاجة، على جهة التعدي عليهم والتكذيب والتبكيت لهم، فأحال المستكبرون بالجواب على القضاء والقدر فقالوا: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] أي: إنا ما ادخرنا عنكم نصحًا وها نحن وأنتم سيان فيا لعذاب، وقد وقعنا جميعًا فلا خلاص لنا سواء علينا الجزع والصبر، كقوله: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦] وقولهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

٣- ومنها مناظرة الشيطان وأتباعه إذ يلومونه في النار ويقولون: غررتنا حتى أهلكتنا، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ فيعترف حينئذٍ بفساده وغشه ومكره وخداعه وعداوته الكامنة باعتبار التسبب، ثم يرجع إلى حقيقة الأمر باعتبار التقدير الإلهي فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من قدرة أقسركم بها على طاعتي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] وهو استثناء منقطع إذ ليس الدعاء قدرة قاسرة، وتصديق ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " بُعِثْتُ مبلغًا وليس إليّ من الهداية شيء، وإبليس

مسوّلًا وَلَيْسَ إِلَيْهِ من الضَّلَالَةِ شَيءٌ "[1]، أو كما قال، ونص ذلك في القرآن: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ونظائره كثيرة. ثم عاد الشيطان عليهم بالاستظهار في الحجة فقال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي: أنتم فرطتم بإجابتكم لي ومخالفتكم لحجج الله وأنبيائه فأنتم الملومون لا أنا؛ لأن الله عز وجل قد أعذر إليكم وعرفكم حالي وإني لكم عدو مبين.

وكان حاصل محاورتهم أنهم قالوا له: أهلكتنا، فمنع ذلك، وقال: ما أهلكتكم إنما أنتم أ÷لكتم أنفسكم، وعند التحقيق ما أهلك الفريقين إلا الله عز وجل بسابق مشيئته فيهم، لكنه جعل إبليس سببًا لهلاكهم وتولى هو إهلاك إبليس بغير واسطة، ثم تبرأ منهم ومن نفعهم وأخبرهم باستواء الجميع في المصيبة، فقال: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: لا أقدر على نصرتكم ولا أنتم تقدرون على نصرتي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي: لا نعمة لكم علي في طاعتي ولا منة، أو يكون المراد أنه حينئذٍ يعترف لهم بالتوحيد ويقول: إنما كان تسويلي لكم الشرك مكرًا وأنا اليوم كافر بإشراككم لي ولغيري، والحق في نفس الأمر هو توحيد الله عز وجل: وهذا منه داخل في قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:١٦٦] ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] هذا يحتمل أنه مبتدأ من الله عز وجل ويحتمل أنه من تمام حكاية محاورة الشيطان تأكيدًا للتبرؤ منهم وتغبينًا وتنديمًا لهم، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه ابن عدى (٣٩/٣، ترجمة ٥٩٧ خالد بن عبد الرحمن)، وابن عساكر (٣٠٣/٥٦)، والديلمى (١١/٢، رقم ٢٠٩٤). وأخرجه أيضًا: العقيلى (٨/٢، ترجمة ٤١٠)، والذهبى فى الميزان (٤١٦/٢، ترجمة ٢٤٤٤)، والحافظ فى اللسان (٣٧٩/٢، ترجمة ١٥٧١) جميعًا فى ترجمة خالد بن عبد الرحمن.

ومن سورة الحجر

١- مراجعة إبليس لله عز وجل في السجود لآدم، وقد سبقت في البقرة والأعراف. ومنها مراجعة إبراهيم عليه السلام ضيفه في البشرى حيث قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، فاستبعد ذلك بقوله: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] أي: ما ذكرتموه يبعد أن يكون لكبرى وعقم زوجتي، قالوا: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] أي: ما ذكرته وإن كان بعيدًا في العادة فهو قريب في القدرة ونحن صادقون فيما أخبرناك والممكن إذا أخبر به الصادق وجب التصديق به وكونه، وفهم إبراهيم أنهم استشعروا منه القنوط وهو الإياس أو مقدماته فبرأ نفسه من ذلك ومنع صحة استشعارهم أي: لا تظنوني قنطت ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ أي: ولا يقنط ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] ثم كانت بينهم المجادلة التي ذكرت في سورة هود في شأن قوم لوط ولم تذكر ها هنا إجمالًا ولا تفصيلًا.

٢- ومنها محاورة لوط لقومه فإنهم لما أقبلوا يهرعون إليه ليراودوه عن ضيفه للفجور بهم، قال لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] فانكحوهن هن أطهر لكم، والمقصود من ضيفي حاصل منهن إذ حكم المثلين واحد، فمنعوا المماثلة وقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، وقد بين أرباب علم الطبيعة الفرق بين وطء الذكر والأنثى من غير وجه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة النحل

١- قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النحل:٣٥] الآية. قد سبق الكلام على نظيرتها في الأنعام، وفي هذه فائدة، وهي قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ﴾ إشارة إلى تكذيب الرسل بدليل قوله عزو جل: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وهو يدل على أنه إنما ذمهم هناك على عنادهم وتكذيبهم لا على كذبهم في قولهم: لو شاء الله ما أشركنا، ويدل على ظهور قراءة التثقيل في (كذب) ورجحانها.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٧، ٥٨] الآيتين. هذه مناقضة أوردها الله عز وجل على االكفار حيث قالوا: الملائكة بنات الله، مع أنهم هم كانوا يستنكفون من البنات ولا يرضونهن لأنفسهم حتى كان أحدهم إذا ولدت له بنت وأدها، أي دفنها حية كراهية لها، وتقرير المناقضة: إنكم أيها الكفار تزعمون أنكم تعظمون الله فكيف ترضون له ما لا ترضونه لأنفسكم؟ وقد تكرر هذا المعنى في القرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الإسراء

١- قوله عز وجل لمن جعل له البنات: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] وهذه مناقضة لهم وتقريرها سبق في سورة النحل وزادها هنا بالتصريح بتعظيمها.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] أي: لطلبوا السبيل إلى قهره وغلبته كما يفعل الملوك المتنازعون في الملك، وقيل: لتقربوا إليه وشفعوا عنده فيما أردوا بغير إذنه، وليس الأمر كذلك إذ لا شفاعة لأحد عنده إلا من بعد إذنه، والقول الأول أصح؛ لأنه أوفق لقوله في سورة المؤمنين: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وهذه ملازمة ذكرت في بيان التوحيد، وتقريرها: لو كان مع الله شركاء له لطلبوا السبيل إلى غلبته على عادة الشركاء والملوك في أملاكهم وبلادهم لكن اللازم باطل فالملزوم كذلك.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩] هذا قدح منهم في المعاد وإنكار له فأجاب الله عز وجل عنه بقوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] أي: أنتم تحيلون الإعادة بناءً على عجزكم وضعفكم والله عز وجل قادر على ذلك كما قدر على إنشائكم في ابتداء الوجود، وقد تكرر هذا القياس في القرآن أعني قياس الإعادة على الابتداء، ثم لما أخبرهم بالمعاد سألوا عن زمانه حيث قال: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ أي: يرفعون ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، وهو كقوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٥٨]، السائل للنبي عليه السلام عن الروح هم اليهود على جهة المغالطة

والتعجيز؛ وذلك لأن الروح لفظ مشترك بين خمسة معان: جبريل، وعيسى ابن مريم، والقرآن، وروح الإنسان، وملك يسمى الروح ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:٣٨]، وقيل: هم صنف من الملائكة لطيف لا يراهم بقية الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة، فسألوه بهذا اللفظ المشترك حتى إنه بأي شيء أجابهم قالوا: ليس كما قلت، فأجمل لهم الجواب كما أجملوا السؤال معارضةً لمكرهم بمثله إذ جميع مسميّات الروح من أمر الله عز وجل وإلا فالأحاديث الصحيحة دلت دلالة قاطعة على أن روح الإنسان جسم ولذلك يتحرك الصدر لخروجها عند النزع، ذكر هذا صاحب "الإفصاح " في خلق الإنسان.

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] وهذا كما سبق في أنه أجاب بإلزامهم أنهم سألوا ما لا يطاق وسألوا الشيء ممن لا يملكه.

٦- ومنها قوله عزو جل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] هذا جواب عن قولهم ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ونظيره في الأنعام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، وفي الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] وتوجيه الجواب ها هنا: لو كان سكان الأرض ملائكة لأرسلنا إليهم ملكًا منهم إذ الحكمة تقتضي أن لا يرسل إلى الجنس إلا من جنسه، لكن أهل الأرض بشر فلا يرسل إليهم إلا بشرًا من جنسهم، وقال في الجواب في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أي: حيث كان أهل الأرض رجالًا فلو نزلنا عليهم ملكًا من السماء لجعلناه في صورة رجل وازداد اللبس عليهم، وأحسب أن في عيسى كذلك جرى وأنه ملَكٌ ظهر في صورة رجل فضل النصارى فيه فاتخذوه إلهًا.

٧- ومنها قولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨] إنكارًا للمعاد وقد سبق نظيرها في السورة فأجاب الله عز وجل بقياسه

على خلق السموات والأرض بجامع الإمان وكمال القدرة حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩] أي: مثل الكفار، أي: هذا ممكن وأنا قادر على كل ممكن فما المانع منه؟ فإن قيل: ليس النزاع في خلق مثلهم إذ هو في كل يوم يهلك ناسًا ويخلق مثلهم، إنما النزاع في عادتهم بأعيانهم نفوسهم وأبدانهم، فالجواب أن المثل هنا ليس هو الحقيقي المغاير بل هو المجازي الذي بمعنى الذات كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقول القائل: مثلي لا يقبل من مثلكا، بدليل أنه صرح بالإعادة في غير هذا المكان كقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤] [الروم: ١١] ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] في مواضع أخر، وحينئذٍ يندفع السؤال.

٨- ومنها مناظرة موسى لفرعون حيث جاءه بالآيات التسع فقال له فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] أي: ليست على شيء وإنما أنت واهم أو متخيل، كما قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] فألزمه موسى العناد بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ليتبصر بها الناس فيبصروا الحق، وكان فرعون يعلم ذلك لأن مثل تلك الآيات تضطر الناس إلى معرفة الصواب: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] أي: يحل بك الثبور وهو الهلاك والخسران ومنه ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الكهف

١- قصة الرجلين في قوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢] هذان أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالًا فاقتسماه فأصاب كل واحد فيما قيل ثمانين ألف درهم، فأنفق أحدهما ماله البر والصدقة وسبيل الخير حتى افتقر، واقتنى الآخر بماله العقار والجنات وكثر ماله حتى أطغاه وكفر بالله وأنكر البعث، فجاءه أخوه الفقير يسأله شيئًا لدفع ضرورة له فلامه، وقال: لو فعلت في مالك كما فعلت لما افتقرت، فقال له: إني ادخرت لي به أجرًا وأنفقته في سبيل الله، فقال له: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] وافتخر عليه بماله، فقال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] فأنكر عليه صاحبه، وقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٧، ٣٨] وتمام القصة مشهور معلوم، وهذان هما المتحاوران في سورة الصافات حيث يقول: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦].

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] لأن غالب من جادل في الله عز وجل وأفعاله هو الإنسان، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة وهما نائمان فقال لهما: " أَلاَ تُصَلِّيَانِ؟ " فقال علي: إنما نفوسنا بيد الله يمسكها حيث شاء ويرسلها حيث شاء، فولى النبي عليه السلام وهو يضرب بيده على فخذه ويقول: "﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾"(١).

٣- ومن هذا الباب قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦] الآية.

٤- ومنها اعتراضات موسى على الخضر في مسائله الثلاث وهي مشهورة والله عز وجل أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه البخارى (٦ /٢٧١٦، رقم ٧٠٢٧)، ومسلم (١/٥٣٧، رقم ٧٧٥)، والنسائى فى الكبرى (١/٤١٣، رقم ١٣١١)، وابن خزيمة (٢/١٧٨، رقم ١١٣٩)، والبيهقى (٢/٥٠٠، رقم ٤٤١٦).

ومن سورة مريم

١- استبعاد زكرياء ومريم الولد من غير جهته وجواب الملك لهما بأن الاستبعاد لا ينفي الوقوع مع الإمكان فقال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١] فإن قيل: لم يكن هذا على جهة المناظرة، قلنا: قد روى عبد الرزاق في تفسيره عن وهب أو غيره من كبار العلماء أن زكرياء عوقب على مراجعته للملك بأن أمسك لسانه ثلاثة أيام، وكذلك هو عند أهل الإنجيل، وهذا يدل على أن ذلك كان على جهة الجدال، إذ الاستفهام المحض لا يوجب العقوبة، فإن قيل: لم يكن ذلك عقوبة بل علامة وآية، قلنا: لا تنافي بينهما فيكون عقوبة وعلامة.

٢- ومنها قول اليهود لمريم حين حملت بالمسيح من غير أب: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٧،٢٨]، أي: أصلك وعملك يقتضي العفاف وينافي البغاء، فما لك قد بغيت حتى حملت بغير نكاح؟! فلم يكن عندها جواب يصدقون به، فأشارت إلى عيسى وهو في المهد فأجاب عنها بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٠ -٣٢] ولم يقل بوالدي، فعلم حينئذٍ من هداه الله للصواب أنه آية من آيات الله وأنه لا أب له، وأكب عليه زكرياء يقبله ويقول: أشهد أنك من آيات الله، وكان قد تحير في أمره بين عفة مريم وهذا الأمر الخارج عن العادة. أما من أشقاه الله وأضله فقال بعضهم: ولد زناء، ففرطوا، وبعضهم: ابن الله، فأفرطوا، وهم اليهود والنصارى عليهم اللعنة والغضب.

٣- ومنها مناظرة إبراهيم لأبيه وحاصله أنه قدح في آلهته وتنقصها وذمها، ودعاه إلى متابعته وخوفه من سطوة الله ونقمته بطريق اللطف حيث قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥] فأصر أبوه على الكفر والعناد وأجابه بالعنف فقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فلما أيس

منه إبراهيم أعرض عنه بلفظ كما أقبل على دعائه بلفظ فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] واستغفاره له وقع في سورة الشعراء حيث قال: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ [الشعراء: ٨٦] وقد كنا قدمنا أن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه بالإيمان، وذلك لا ينافي من ذكرنا الآن لجواز أنه بعد هذا العنف والغلظة على إبراهيم؛ لأن له ووعده واستغفر له إبراهيم حينئذٍ، ولكن يبقى في عزم إبراهيم على استغفاره له عقب غلظته عليه ومبارزته بالعناد إشكال في النفس منه شيء، فيمكن حمله على أن إبراهيم كشف له أن أباه سيعده بالإيمان فيكون استغفارًا له لأجل ذلك.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] هذا على جهة الإنكار للبعث، فأجاب الله عز وجل بالقياس على الابتداء فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٦٧]، أي: كما ابتدأناه نعيده فالفعلان جاريان ممكنان ونحن عليهما قادرون فما وجب التعجبو الإنكار.

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] هؤلاء هم الكفار من الوثنيين والنصارى وغيرهم، فعظم الله عز وجل ذلك ثم أجاب عنه بجوابين:

أحدهما: أن ذلك مُحال عليه عز وجل بقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ أي: لا يجوز: ﴿لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢] الثاني: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] أي: هم عبيده، والعبودية تنافي الولديه، وقريب من هذا في نفس جواز الشيء ووقوعه قوله عليه السلام: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَام وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام"[(١)] أي:لا يقع منه النوم ولا يجوز عليه النوم، وقد كان نفي الجواز كافيًا عن نفي الوقوع لكن أحب التصريح به مطابقة لأنه أبلغ، والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٦١، رقم ١٧٩)، وابن ماجه (١/٧٠، رقم ١٩٥). وأخرجه أيضًا: أحمد (٤/٤٠٥، رقم ١٩٦٤٩)، وأبو عوانة (١/١٢٧، رقم ٣٧٩)، وابن حبان (١/٤٩٩، رقم ٢٦٦)، والطبرانى فى الأوسط (٦/١٣٩، رقم ٦٠٢٥).

ومن سورة طه

١- محاورة فرعون لموسى وهارون حيث قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧، ٤٨] ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩] وهذا سؤال منه على جهة الاستفسار؛ لأن فرعون كان يزعم أنه رب الناس.

فلما جاء موسى يدعي ربًّا فقال له: من ربك أنا أو غيري؟ أو يكون من باب سؤال المطالبة بالحجة على أن له ربًّا، فأجاب موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] مبينًا أن ربه غير فرعون دالًّا على وجوده بآثار فعله، ﴿قَالَ﴾ يعني فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، هذا سؤال آخر مستأنف يعني أين الأمم الماضية وكيف حالهم وإلى ما صاروا؟ كأنه يشير إلى قول الدهرية من أن العالم نبات يذهب فلا يعود إنكارًا للمعاد الذي جاءت به الرسل، وقد تضمن قدحًا فيما جاء به موسى من ذلك، فأجاب موسى بمنع ذلك بقوله: ﴿عِلْمُهَا﴾ أي: علم القرون الأولى ﴿عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لم يقع الإياس منها بل لها عودة تنتظر في المعاد ببعث الأجساد، ثم دل على ذلك بما استدل الله عز وجل به على الكفار وهو خلق السموات والأرض وإحياؤها بالنبات حيث قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤] أي: علامات على إمكان البعث ﴿لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٤، ٥٥] ثم ذكرت قصته في معارضة السحرة له على نحو ما سبق من الأعراف، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الأنبياء عليهم السلام

١- قوله عز وجل في صفة الكفار: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، فأجاب عن قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم؟ بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧] أي: قد سلمتم أن رسلًا كانوا قبلي مع أنهم كانوا بشرًا مثل قومهم، وحكم الأمثال واحد فأنا كواحد من أولئك. وهذا جواب تضمن الإلزام كما ذكرنا والنقض عليهم لأنهم عللوا نفي الرسالة بالبشرية، وقد وجدت البشرية في رسل الأمم الخالية وما انتفت الرسالة. وأجاب عن قولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ [الأنبياء:٤] أي: يعلم ما أقول هل هو سحر أم لا، أو يعلم ما تقولونه من القدح في رسالتي فيجازيكم عليه، وقد تضمن ذلك الرد عليهم ومنع كون ما أتى به سحرًا مع أن نفس الصيغ التي أجابهم بها دليل في نفسها على بطلان قولهم بناءً على أن القرآن وكل آية منه معجز لا نعلم في ذلك خلافًا بين المسلمين، ولهذا منع بعض العلماء الجنب من قراءة آية فصاعدًا ورخص فيما دونها، وإنما الخلاف بينهم في أن إعجازه لذاته أو للصرفة كما هو مذهب أكثر المعتزلة وابن حزم الظاهري، فحصل الجواب عن سؤاليهم بنقض الأول ومنع الثاني والإشارة إلى بيان مستند المنع بما ذكر.

٢- ومنها الاستدلال على وحدانية الصانع بقوله عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢] الآية. وقد سبق وجه الاستدلال بها في الباب الرابع.

٣- ومنها قول عز وجل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقد تضمنت جوابين:

أحدهما: عام للقدرية ونحوهم ممن اعترض على أفعال الله عز وجل بلم كما سبق في اعتراضات إبليس في سورة الأعراف، قال القاضي أبو يعلى من أصحابنا: مذهبنا مذهب السلف: السكوت عن كيف في صفاته وعن لم في أفعاله، والثاني خاص للكفار الذين قالوا: هل هذا إلا بشر مثلكم؟ لأن هذا هو سؤال الترجيح بلا مرجح، أي: لم خصصت دوننا بالرسالة ونحن سواء في البشرية؟ فأجيبوا بأن الله عز وجل لا يسأل عما

يفعل فله تخصيص من شاء بما بشاء: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] [آل عمران: ٧٤].

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي: بل اتخذوا، أي: لم تردعهم هذه البراهين على التوحيد بل هم في غفلتهم مشركون، ثم طالبهم بالبرهان على الشرك فقال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤] أي: ولم يكن فيهم مشرك فأنتم خارجون عن مقالات المعتبرين من الناس كالأنبياء والصديقين وهو كقوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقد صرح بذلك في الآية بعدها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦] هذا حكاية قول الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، ثم رد عليهم بالمنع فقال: ليس الأمر كما زعموا والله منزه عن ذلك، بل الملائكة وكذا المسيح وعزير ﴿عِبَادٌ﴾ وهو رد على النصارى ونحوهم ممن غلا بإثبات الولدية، ﴿مُكْرَمُونَ﴾ عند الله عز وجل، وهو رد على اليهود الذين فرطوا فقالوا: جبريل عدونا والمسيح ليس رسولًا، وقدحوا فيه بما عرف فنزلهم الله عز وجل منزلتهم الوسطى لا إفراط ولا تفريط وهو مذهب المسلمين.

٦- ومنها قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠ -٣٣] استدلال على معطلة الكفار باستلزام الصنعة وجود الصانع كما سبق. واعلم أن كفار العرب كانوا ضربين: معطلة لا يثبتون إلهًا بالكلية؛ كالمعطلة القدماء من المتفلسفة، والاستدلال ها هنا عليهم، ومثبتة للصانع لكنهم يشركون معه وهم المراد بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وذكر انقسامهم إلى القسمين الشهرستاني في "الملل والنحل ".

٧- ومنها مناظرة إبراهيم لقومه إذ قال لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأجسام ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] أي: مجتمعون على عبادتها، وهو استفهام نفي

وإنكار، أي: ليست هذه أهلًا أن تبعد فدعوها واعبدوا الله خالقكم وخالقها ! فأجابوا بشبهة التقليد، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] يعني: ولو لم تكن أهلًا للعبادة لما عبدوها،إذ اتفاق الجم الغفير من العقلاء على تعاقب الأزمنة على الباطل ممتنع عادة، فأجابهم بالقدح في دلالة التقليد وفيمن قلدوه، بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤] أي: التقليد لا يصادم البراهين القواطع على التوحيد، واتفاق الجم الغفير على الباطل ليس ممتنعًا في العادة، بل هو بعيد بشرط استناده إلى حجة، أما بمجرده فلا يمتنع ولا يبعد، وإلا فقد لزم آباءكم ترك الشرك اقتداءً بآدم والجم الغفير بعده من الموحدين. فلما صدقهم في مقام النظر ترددوا إما في صحة ما يدعو إليه أو في كونه جادًّا فقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥] أي: أحق ما تقوله أم تمازحنا وتلعب معنا؟ فأجاب بقوله: ﴿بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦] أي: ليست بلاعب بل جاد فيما أقول شاهد على صحته، وكان هؤلاء معطلة لا يعرفون إلهًا إلا أوثانهم فدلهم على وجود الإله الحق بوجود السموات والأرض استدلالًا بالأثر على المؤثر وانقطعت المناظرة في هذا المجلس، ثم قال في نفسه: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] وكان لهم عيد يجتمعون إليه فتخلف إبراهيم عن عيدهم ليكسر أصنامهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: قطعًا (إلا) صنمًا ﴿كَبِيرًا لَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٨] فلم يكسره وعلق القدوم في عنق ذلك الصنم، فلما رجعوا ورأوا ما حل بأصنامهم ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩] أي: وضع الإهانة والأذى غير موضعها على زعمهم؛ لأن الآلهة تستحق الإكرام لا الإهانة، ﴿قَالُوا﴾ يعني: بعضهم لبعض ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعني: الأصنام ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي: يذمها ويعيبها وينهى الناس عنها فخليق أنه الذي فعل بها هذا، وليس المراد من ذلك أنهم سمعوه يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء:٥٧] لأنهم لو سمعوا ذلك منه لاحترزوا عليه منه وإنما المراد – والله عز وجل أعلم – ما ذكرنا ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: ظاهرًا بينهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١] أي: ما يجري منا ومنه أو لعل عند أحد منهم علمًا من أمره فيشهد به عليه فأتوا به،

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] ﴿قَالَ بَلْ﴾ أي: إنما ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] يعني الصنم الكبير، وهذا القدوم معلقًا في عنقه أمارة على أنه فعله وإنما كسر الأصنام الصغار غيرة منه أن يعبد معه غيره، وإن كنتم لا تصدقون ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وكان له في ذلك عليهم إلزامان:

أحدهما: أن هذا الصنم كما يغار من عبادة غيره معه كذلك الله عز وجل لا يرضى أن يعبد معه غيره.

الثاني: ما صرح به بعد من توبيخهم على عبادة ما لا ينطق ولا يضر ولا ينفع ولا عن نفسه يدفع، ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تدبروا ما نبههم عليه إبراهيم: ﴿فَقَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤] حيث تعبدون ما هذه صفته من العي والعجز ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ [الانبياء: ٦٥] أي: رجعوا إلى عنادهم وألزموه تكليف ما لا يطاق، أي: أنت أحلتنا بالجواب والسؤال على جماد لا ينطق وذلك محال؛ لأن النطق شرطه الحياة والعقل فقد كلفتنا ما لا يطاق، فتمت لإبراهيم الحجة عليهم وقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧] أي: أنا لم أكلفكم محالًا بل ألزمتكم المحال وهو عبادتكم عاجزًا عييًا، فلما انقطعوا عن الجدال رجعوا إلى الظلم والعناد فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فرد الله عز وجل كيدهم بما ذكر. وقد بينا أن الله عز وجل يقابل الحجة بالحجة والقوة بالقوة وأنه الغالب فيهما.

٨- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] الآية. فكان من قصتهم أن غنمًا لشخص دخلت ليلًا إلى كرم قوم فأفسدته بالرعي والوطء، فترافعوا إلى داود فحكم بالغنم لصاحب الحرث لاستواء قيمتها عنده، فاعترضه سليمان وقال: ليس الحكم هكذا، قال: فكيف تقول أنت؟ قال: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها وصوفها حتى يعيد صاحبها الحرث كما كان قبل أن تفسده، ثم يدفعه إلى صاحبه ويسترد غنمه.

٩- ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ثم استدل على نفي إلهيتها بقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] لكنهم يردونها فلا يكونون آلهة، ولما سمع ابن الزبعرى هذه الآية، قال: خصمت محمدًا ثم جاءه فقال: يا محمد، قد عبدت الملائكة والمسيح أفهم في النار؟ وكان ذلك تمسكًا منه بعموم ما في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، وتقرير السؤال هكذا، فالملائكة والمسيح قد عبدوا وكل معبود سوى الله في جهنم فالملائكة والمسيح في جهنم، لكن هذا باطل وإنما جاء هذا البطلان من قولنا: كل معبود في جهنم، فيكون باطلًا وما ذكرته ليس بصحيح، أو هكذا: لو كان كل ما عبده الكفار في جهنم لكان الملائكة والمسيح في جهنم، لكن اللازم باطل فالملزوم كذلك، فأجيب بجوابين:

أحدهما: أن النبي عليه السلام قال له: ما أجهلك بلغة قومك إن (ما) لا يعقل، وهو اعتراض بفسا الاعتبار، أي: ما ذكرته ليس دليلًا على ما ادعيته وإنما كان لك أن تحتج به لو كان هكذا (إنكم ومن تعبدون) ليتناول جميع العقلاء ممن عبد.

الجواب الثاني: أنه عام أريد به التخصيص بدليل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] والملائكة والمسيح ممن سبقت لهم الحسنى فلا يكونون مرادين من عموم المعبودين والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الحج

١- قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥] الآية فيها حجتان على منكري صحة بعث الأجساد في المعاد:

الحجة الأولى: قياس الإعادة على الابتداء وهي من أول الآية إلى قوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] ونظيره ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم:٢٧] وأشباهه، والثانية قياس إحياء الناس بعد موتهم على أحياء الأرض بعد موتها بالنبات بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦] ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

وقد استقصيت الكلام على هذه الآية ونظائرها في "شرح مختصر الروضة في أصول الفقه" في الكلام على منكري القياس في بابه على وجه لم أجد هناك مزيدًا عليه.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] هذا مثل جادل الله به الكفار وأبطل عليهم القول بالشرك، وتقريره بطريق الاقتران: لا شيء مما تعبدون بقادر وكل معبود فهو قادر، فلا شيء مما تعبدون بمعبود حق. بيان الأولى أن عدم القدرة أو كمالها نقص وهو ينافي الإلهية.

بيان الثانية: أن ما تعبدون لا يقدرون على خلق ذباب ولا على استنقاذ ما سلبتهموه وهو من أضعف الدواب وهذا أبلغ الضعف، وبطريق الملازمة: لو كان ما تعبدون من دون الله إلهًا حقًّا لكان قادرًا، لكن اللازم باطل فالملزوم كذلك. بيان الملازمة أنه لو لم يكن قادرًا لكان عاجزًا والعجز نقص ينافي الإلهية، بيان انتفاء اللازم عدم قدرتهم على خلق الذباب مع أنه أضعف الدواب. والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة المؤمنون

١- قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]، هذا استدلال على الإعادة بالقياس على الإنشاء وهو في الإخبار بتنقل الإنسان في الأطوال كالتي في أول سورة الحج.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وما بعدها، استدلال على منكري الصانع بوجود الصنعة، وهو من باب دلالة وجود الملزوم وقد تكرر ذلك.

٣- ومنها مناظرة نوح لقومه حيث قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فردوا ذلك عليه ومنعوه ثم عارضوه بوجهين:

أحدهما: سؤال الترجيح بلا مرجح بقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] وقرروا ذلك بقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] وفي قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] إشارة إلى اتهامه بطلب الرياسة، وقد نفى ذلك بقوله فيما سبق: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩].

الوجه الثاني: قولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] وهي شبهة التقليد وقد سبق الجواب عنهما. وهذا هنا انقطعت المناظرة وقد استوفيت في سورة هود فلما أيس منهم شكاهم إلى الله فقال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] كقوله في سورة القمر: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] هؤلاء هم عاد قوم هود؛ لأنهم في الواقع والأخبار في سورة الأعراف بعدهم حيث يقول لهم هود: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢] يعني: هودًا وإنما أبهم هاهنا اعتمادًا على ما بين قبل ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، فمنعوه صحة الدعوى، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣]، وهو سؤال الترجيح بلا مرجح وقد عرف جوابه غير مرة، ثم بنوا على

ذلك قولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] كقول ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] ثم أنكروا البعث بقولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥، ٣٦] أي: بعد ذلك ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: ما هي ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] أي: نحيا ونموت؛ لأنهم لا يقرون بالحياة بعد الموت، أو على الإنكار تقديره: أنموت نحيا منكرين لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ثم صرحوا بتكذيبه بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨]، فلما رأى العناد ظاهرًا بعد قيام الحجة عليهم بما سبق من مناظرته لهم استنصر به عليهم قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٣٩].

٥- ومنها قول قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، فيه سؤالان: أحدهما الترجيح من غير مرجح كما سبق، الثاني دعوى فساد الوضع، أي: نحن معبودون فكيف نكون عابدين وحالنا تقتضي خلاف ذلك على زعمهم، والسؤالان ممنوعان.

٦- ومنها قوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١- ٨٣]، هذا تكذيب منهم بالبعث، وليس المقصود ها هنا الاحتجاج على إمكانه بل توبيخهم وتقريعهم بأقوالهم القبيحة ونعيها عليهم، وهو جدال في المعنى؛ لأن إنكار قولهم منع له ونفي، والدليل على ذلك قد تكرر في القرآن.

٧- ومنها قوله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] الآية. هذا رد على المشركين والمدعين لله البنات والبنين، ثم احتج لذلك بقوله: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] أي: لو كان معه إله غيره لكان خالقًا لبعض العالم مثله، ولو كان كذلك لتصرف كل واحد من الآلهة فيما خلق تصرفًا تامًا ولذهب به إهلاكًا وانحيازًا، وفيه إشارة إلى معنى قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ

إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، أي: ولو انحاز كل إله بما خلق لوقع بينهم الحرب والقتال على عادة الملوك في انحيازهم بالعساكر والجيوش، فكان يفسد العالم وأيضًا ﴿وَلَعَلَا﴾ أي: غلب: ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، واللازمان باطلان، ثم أشار في آخرة السورة إلى أن دعواهم الشرك مجردة عن حجة بقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧] والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة النور

١- قوله عز جل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [النور: ٤٧]، هذا إيراد مناقضة على المنافقين حيث يدعون الإيمان ولا يلتزمون أحكامه ولا يجيبون إلى حكامه، وهو شبيه بقوله في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، وأشبه من ذلك قوله في آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، وقوله في المائدة: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٤٣] ومعنى الكلام: لو كانوا مؤمنين حقًّا لما تولوا عن حكم الإيمان لكنهم ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩] وهو كقوله في المائدة حكاية عن أهل الكتاب: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الفرقان

١- قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ ثم أجابهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]؛ لأنهم جعلوا الوحي زورًا واختلاقًا فوضعوا الشيء غير موضعه ولم يوفوه حقه.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] ثم أجابهم عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، أي: ليس الأمر كما زعمتم من أن القرآن أخبار الأولين وتواريخهم استنسخها من أهل الكتاب ثم جاء بها بل هو منزل من عند الله الذي يعلم السر، وفي ذلك إشارة إلى ضرب من الوعيد، أي: إنه يعلم ما تقولون فيجازيكم عليه، ثم لم يقنطهم من الرحمة إن تابوا، فقالوا: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] ويحتمل غير ذلك.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]، ثم لما ظنوا أن هذه الشبه تدل على مطلوبهم جزموا به ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، قال الله عز وجل منبهًا على ضلالهم: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]، يعني: إلى الهدى، ثم أجاب عن ذلك أما عن قولهم: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ وتقريره: لو كان نبيًّا لأغناه الله عن الضرب في الأسواق وعن الأكل فبمنع الملازمة، واستشهد عليه بما اطردت به العادة من كون الأنبياء كذلك حيث قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] ثم كأنه توقع سؤال سائل يقول: ولِمَ كان كذلك وقد أمكن صاينتهم عن الأكل والتبدل كالملائكة؟ فأجاب بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] أي: جعلنا ذلك شبهة للكفار ليضلوا بها كقوله في الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكقوله في الحج: ﴿لِيَجْعَلَ مَا

يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣] يعني إلقاء الشيطان في أمنية المرسلين، وأجاب عن قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] ونظيرها في سورة هود.

أما عن إنزال الملك فيما سبق في سورة الأنعام، وسورة الإسراء على ما اتضح فيها، وأما عن الكنز والجنة فبقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، أي: مما قالوا من الكنز والجنة: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] وإنما لم يجعل لك ذلك في الدنيا لحكم: منها أن يكون شبهة للكفار وفتنة كما ذكر، ومنها أن لا ينقض حظك من الآخرة بما تؤتاه من زهرة الدنيا فإنها دار فرار لا دار قرار، ومنها أنه لو جعل لك ذلك ربما شغلك عن القيام ببعض أعباء الرسالة فجرد همتك لها وفرغ خاطرك من غيرها.

قلت: وإنما ذكرت هذه الوجوه من الحكمة في فقره عليه السلام وإن لم يكن منصوصًا عليها في الآية؛ لأنها منبه عليها منه، وذلك لأنه سبحانه وتعالى أخبره: لو شاء لجعل له كنوزًا وجنات، وإنما منع من ذلك مانع لكن المانع إما قهري وهو مُحال على الله عز وجل أن يقهره شيء فيمنعه من مراده، أو اختياري حكمي أي لحكمةٍ فيكون متعينًا للمنع من ذلك، وما ذكرناه من وجوه الحكمة مناسب مع جواز غيره على الجمع أو البدل، فوجب إضافة المنع إليه عملًا بالمناسبة الحكمية واحترازًا عن تجرد أفعال الله عز وجل عن حكم ظاهرة لخلقه إذ ذلك هو الأصل.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٧-١٩] الآيات.

هذه المناظرة تقع بين العابدين والمعبودين فيدعي الكفار أن معبوديهم من صنم ورئيس هم أضلوهم، فيقال بنهم على ذلك فيقول للمعبودين: ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] بوضع العبادة غير موضعها اختيارًا، فيقول

المعبودين ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزهت عن الشرك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، ويشبه أن القائلين لهذا هم الملائكة المذكورون في سورة سبأ كما سيأتي فيها إن شاء الله عز وجل، والأولى حمكل الكلام على كل معبود مخلوق غير مشرك؛ ليصح منه الإنكار حينئذٍ بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي عبادًا يعبدوننا أو أن تنصرف هممنا إلى غير ولايتك وعبادتك ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي: تركوه: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] أي: هلكى بالشرك، فيقول الله عز وجل للعابدين المشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ يعني معبوديكم ﴿بِمَا﴾ أي: فيما ﴿تَقُولُونَ﴾ فتقع الحجة عليهم حينئذٍ ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنهم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لأنفسكم من عذاب الله.

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] أي: لو كنت صادقًا لجئتنا بالملائكة، أو أريتنا ربنا، كما قالوا في سورة الإسراء: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] فأجاب الله عز وجل بقوله: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الفرقان: ٢١] أي: هم أقل وأخس من أن يسألوا ذلك أو يروه.

وكَيْفَ تَرَى لَيْلَى بعَيْنٍ تَرَى بِها ... سِواها وما طَهَّرْتَها بالمَدامِعِ

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: إن الملائكة لا يرونها في الدنيا لئلا يضطروا إلى الإيمان وإنما المراد منهم الإيمان الاختياري الحاصل مع قيام الشبه، وإنما يرون الملائكة عند الثواب أو العقاب ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: الجنة عليهم حرام محرم لا يدخلونها.

٦- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: لو كان صادقًا لجاءه القرآن دفعة واحدة كما جاء موسى بالتوراة، لكنه هو يختلقه ويفتعله شيئًا فشيئًا. فأجاب الله عز وجل ببيان الحكمة في تنزيله تفاريق بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] بدوام نزول

الوحي ومحادثة قصص المرسلين لك في كل وقت ليكون أسكن لك وأسلى وأشد تناسبًا، كما قال في آخر هود: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] وهو أحسن من سرده دفعة واحدة؛ لأنه أشبه بخلق التؤدة والسكينة، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أي: لتقابل عتراضاتهم بجواب يقمعها ويبطلها فإن اعتراضات الكفار متواترة في كل وقت فاحتاجت إلى أجوبة كذلك.

فحاصل الأمر أنهم حصروا حكمة تفرق القرآن في التمكن من اختلاقه شيئًا فشيئًا فمنع عليهم الحصر، وقال: بل هناك حكم أخرى غير ما ذكرتم وهي تثبيت القلب وترتيل القرآن المحمود وإعداد أجوبة اعتراضاتكم.

٧- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥] أورد الله عز وجل على الكفار في هذا الكلام سؤال فساد الوضع، وذلك أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على النفح ولاضر، وهؤلاء عبدوا ما لا ينفع ولا يضر في الحال وإن كان ضره لازمًا في المال بل وفي الحال أيضًا؛ لأنه يريد خدعة وسياسة كالدابة بل هو أسوأ حالًا؛ لأن الدابة حيوان متحرك باختيارها بخلافه.

وكذلك شأن الإله أن يكون ظهيرًا أي حاكمًا مستظهرًا على عبيده، وهؤلاء بالعكس؛ لأنهم ظهراء على أربابهم إذ أحدهم يسوس ربه ويطعمه ويخدمه، وربما عمل ربًّا من حيس أو تمر ثم إذا جاع أكله، والإلهية تقتضي خلاف ذلك والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الشعراء

١- قوله عز وجل: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني بالرسالة وما تضمنته من التوحيد والبعث ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ أي: أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦] أي إذا جاءهم مصداق ما أخبرتهم به ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٧] فتوعدهم ثم احتج عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء: ٨] علامةً ودليلًا لهم على البعث وقدرة الرب عليه، لكنهم غافلون عن النظر والاستدلال ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، يعزهم أي يغلبهم ويعذبهم إن تأبوا ويرحمهم إن تابوا.

٢- ومنها محاورة موسى لفرعون حين قال له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧] أي: أطلقهم من تعذيبك باستخدامك واستبعادك لهم، قال له فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي: طفلًا، وذلك حين خافت أمه عليه من فرعون فألقته في وألقيت محبته على أهل بيته، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] إلى أن قتل القبطي وذلك قريب ثلاثين سنة، وذلك من فرعون يحتمل أمرين:

أحدهما: أنه يشير إلى ازدرائه بناءً على قولهم: ما وقرك كبيرًا من عرفك صغيرًا.

والثاني: أنه يشير إلى كفر النعمة، أي: ألم نحسن إليك بالتربية ثم قابلتنا بقتل صاحبنا ثم جئت تفسد علينا ديننا.

والأول هو المذكور في القصة حيث قال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] يعني: لنعمة التربية، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: قبل أن تأتيني الحكمة من ربي، وقد اعترف بنحو ذلك في سورة القصص حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي: أتمن علي بأن اتخذت قومي عبيدًا وإساءتك بذلك لا يقاموها إحسانك بتربيتي، لعمرك! ما عز من ذل قومه ! ثم انقضت المناظرة في هذا المعنى وعاد إلى المناظرة في

خصوص الرسالة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، يعني: الذين تدعوني إليه، وقد قبح على فرعون هذا حيث سأل عمن يعلم بصيغة ما لا يعلم، قلت: فمن المحتمل أنه اعتقده صمنًا أو وثنًا أو فلكًا أو شمسًا أو نجمًا فسأل عنه بذلك، فأجاب موسى فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] فعجب فرعون قومه من ذلك وقال لمن حوله منهم: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] أي: اسمعوا ما يقول ! يزعم موسى أن رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم الأولين يعني لأنهم من جملة العالمين فيكون رب موسى ربه، ثم صرح بإنكار ذلك فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] يعني: موسى يزعم أن ثم ربًّا غيري وأنا لا أعلم لكم إلهًا غيري، قال –يعني موسى – لما رأى تعجب فرعون وإنكاره للرب زيادة فيما يغيظه ويناقضه به ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ أي: رب العالمين الذي أدعوك إليه هو رب المشرق ﴿وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨] فظهر حينئذٍ غيظ فرعون وغضبه وعناده وأعرض عن الاحتجاج وجاء بالغلبة فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠] أي: أتسجنني وإن أتيت بحجة تدل على صدقي وحقيقة ما عندي؟ قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ أي: بالبرهان المبين الذي معك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١]، وهذا من فرعون يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون على جهة التعجيز ثقةً بما هو عليه، أي: لست قادرًا على برهان بصدقك، والثاني: أن يكون على جهة الإنصاف؛ لأن كل عاقل – لا سيما إذا كان حاكمًا – من شأنه العدل إذا دعي إلى حجة العقل اضطره عقله إلى الإجابة إليها ويمنعه عن الإباء عنها، فلما دعاه موسى إلى حكم العقل منعه العقل عن الإعراض عنه، فأتى موسى حينئذٍ بحجته ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣] ثم جرى بينهما ما سبق ذكره في سورة الأعراف وحاصله أنه احتج بعصاه فعارضوها بالسحر فأبطل معارضتهم فبقيت حجته سالمة عن معارض وثبتت بها الدعوى.

٣- ومنها مناظرة إبراهيم لقومه حيث قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، يحتمل أنه استفهام إنكار ويحتمل أنه استفهام تقرير ليبنى عليه الاعتراض، ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] أي: مجتمعين على عبادتها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢] يعني: هل يسمعون كلامكم في عبادتكم لهم أو في تحصيل الخير أو دفع الشر ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٣]، وهذا أيضًا استفهام تقرير ليبني عليه الحجة، ﴿قَالُوا بَلْ﴾ أي: ليس ينفعوننا بل ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] أي: يعبدونهم فعبدناهم، فكان غاية مستندهم التقليد وهو باطل في نفسه بالضرورة غير محتاج إلى جواب. فأعرض عنه إبراهيم ثم صادمهم بالممانعة ثم بنى عليها احتجاجه على دعواه فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦] أي: هل تعرفونهم؟ كأنهم قالوا: نعم ! قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وفي هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: أنه منقطع، إذ رب العالمين ليس من جنس ما يعبدون هم وآباؤهم، والثاني: أنه متصل؛ لأن المستثنى منه تناول كل ما بعده آباؤهم الأقدمون ومنهم آدم وبنوه المؤمنون بعده من آبائهم وهو رب العالمين، فاستثناه لتناول المستثنى منه له، ثم أثنى على الله عز وجل بما يدل على ربوبيته واستحقاقه العبادة فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢] ثم تخلص بعد الثناء إلى الدعاء؛ لأنه مناسب للإجابة.

٤- ومنها مناظرة نوح لقومه حيث قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كرر الأمر بالتقوى اهتمامًا بها؛ لأنها تجمع كل خير ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨] فيما دعوتكم إليه. ثم أزال عن نفوسهم شبهة التهمة، فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى تتهموني لأجله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١١٠] كما سبق، فأجابوه بالاستكبار والقدح فيمن اتبعه بالرذالة فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] أي: أنتبعك وهذه حالك وحال أتباعك ونسوي أنفسنا بهم وهم أراذل؟ لا نفعل ذلك ! فأجاب بأن قال:﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢، ١١٣] أي: إن هذا لا

يقدح في ولا يمنعكم من متابعتي؛ لأني مأمور بدعاء الناس إلى الحق، فإن كان في رذالة هؤلاء خطيئة أو إثم فحسابهم فيها إلى الله عز وجل وذلك لا يضرني ولا يضركم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٤، ١١٥] وذلك معنى قوله في سورة هود: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩]، فلما غلبوا بالحجة رجعوا إلى القوة فقالوا: ﴿لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عن دعائنا والتعرض لآلهتنا وديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، فاستغاث إلى الله ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ﴾ أي: احكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] فجاء أمر الله وكان منهم بالغرق ما كان.

٥- ومنها مناظرة هود لقومه إذ قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٤-١٢٧]، وتقرير ذلك ما سبق في قصة نوح، ثم أنكر عليهم أفعالهم المنكرة فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي: طريق ﴿آيَةً﴾ أي: علامة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، أي: تفعلون ذلك عبثًا. وكانوا يبنون على الأماكن المشرفة أبراج الحمام يعلبون بها، قال ابن عطية: الريع المكان المشرف الذي يتنافس البشر في مبانيه والآية البنيان، قال ابن عباس: آية علم، وقال مجاهد: أبراج الحمام، ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: قصورًا وحصونًا ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أي: كأنكم ﴿تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] وهي كذلك في بعض القراءات، وحكاه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] أي: تأخذون الناس إذا غضبتم عليهم بقوة وسرعة وسطوات مفرطة وكفر نفوس من غير تأنٍ ولا رفق لا لطف بالناس، وذلك قبيح مذموم عرفًا وشرعًا، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٣١] في التوحيد وعبادة الله، ثم ذكرهم نعم الله عليهم المقتضية لشكره بطاعته فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٥]، فأجابوه بالمصادمة بالتكذيب فقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦،١٣٧] أي: هكذا خلقت الأولون كانوا يحيون ويموتون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] أي: لا بعث حتى يتعقبه العذاب كما قالوا في سورة المؤمنين: ﴿إِنْ

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧] قال الله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩] يعني: بالريح العقيم.

٦- ومنها مناظرة صالح لقومه إذ قال لهم كما قال هود لقومه ثم أنكر عليهم الكفر بالله عز وجل مع التقليب في نعمه فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا﴾ [الشعراء: ١٤٦] يعني: من النعم ﴿آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ -١٤٨]، قال عبد الرزاق عن معمر، عن الكلبي: الهضيم اللطيف، قلت: كأنه أخذه من قوهم امرأة هضيم الكشح أي لطيفة الخصر، والأشبه أن الهضيم المتدلي من رءوس النحل لثقله وكثرته وإلا فلطافة ذلك لا نعمة فيه يمتن بها، ويكون هضيم بمعنى هاضم، أي: هضم قلب النخلة بثقله عليها، وعلى الأول يكون هضيم بمعنى مهضوم، أي: تهضمه المعدة لجودة غذائه ونفعه أو غير ذلك، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩] معجبين بصنيعكم مرحين مسرعين، من قولهم: دابة فارهة، ومن قرأها (فارهين) فمعناه: خائفين، حكاه عبد الرزاق، قلت: المادة واحدة والخوف سبب السرعة والنشاط، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٥٠] فيما دعوتكم إليه ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١] كأنه يشير إلى طواغيتهم ورءسائهم الذين يأمرون بالاستمرار على الكفر ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٢]، هذه آخر موعظته لهم فأجابوه بمنع دعواه والقدح في عقله فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: مسحود قد فسد عقلك كأنك مسحور، وقيل: من أكلة الطعام، أي:تأكل في سحرك، كما قال[1]: [الوافر]

وَنَسْحَرُ بِالطَّعَـــــامِ وَبِالشَّرَابِ

وقال الآخر[2]: [الطويل]

---

(١) عجز بيت لامرئ القيس، وصدره:

عَصَافِيرٌ وَذِبَّـــــانٌ وَدُودٌ

انظر: الديوان ١/٤٣.

(٢) من شعر لبيد، الديوان ١/١٣٥.

فَـإِنْ تَسـأَلِينَا فِـيمَ نَحْـنُ فَإِنَّنَـا عَصَـافِيرُ مِـنْ هَـذَا الأَنَـامِ المُسَـحَّرِ

أي: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾لا فضل لك علينا وه وسؤال الترجيح بلا مرجح ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، أمر تعجيز، أي: لست مستندًا إلى حجة، فأجابهم إلى ذلك وقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، أي: الماء بينكم وبينها لها يوم ولكم يوم، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦] فأضرت بهم؛ لأنها كانت عظيمة الجثة تشرب الماء وتدع مواشيهم عطشى، لكنها كانت تخلف لهم الماء لبنًا، ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧] لحلول العذاب بهم، فحاصل الأمر أنهم ما انقادوا للوعظ المحض، فلما جاءتهم الحجة المحسوسة أعندوا فيها ولم يقبلوها فحق عليهم القول.

٧- ومنها مناظرة لوط لقومه حيث قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١] إلى آخر ما ذكره من قبله، ثم أنكر عليهم فعلهم القبيح فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] قيل: القُبل، وقيل: مثل ما للذكران من الأزواج، حكاه عبد الرزاق بإسناده عن ابن عمر واللفظ أعم من ذلك، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] أي: متعدون حدون الله بتعديكم ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، فلم تطيعوه بل ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧، ١٦٨] أي: المبغضين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]، لما ردوا عليه النصح والوعظ وعدلوا عن الحجة إلى القوة استنصر الله عز وجل عليهم فنصره بأن أهلكهم وخلصه.

٨- ومنها مناظرة شعيب لأصحاب الأيكة إذ قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧- ١٨٠] ثم أمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١] للناس في أموالهم، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾أي: العدل ﴿الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ أي: وخلق الجبلة، أي: الأمم ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٢-١٨٤] أن يهلككم كما أهلكهم، فصادموا بالشقاق كقوم صالح ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥، ١٨٦]، أي: إنا نراك كاذبًا، ثم عجزوه وبالعذاب استعجلوه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أي: قطعًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فأجاب بقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨] أي: ليس تعذيبكم إلي بل الله أعلم بعملكم فإن شاء عذبكم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، هي سحابة استظلوا تحتها من حر وكرب غشيهم حتى اجتمعوا فجعلت عليهم نارًا فأحرقتهم، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة النمل

١- قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾أي: قل لهم، أو: قال لهم: اعبدوا الله ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] أي: فريق معه وفريق عليه،وكذلك ذكر في الأعراف حيث قسمهم إلى مؤمنين مستضعفين وإلى كفار مستكبرين وهم الذين عصوه ومانعوه وكذبوه، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٤٦]، هذا جواب لقولهم: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [النمل: ٧٧] فقال لهم: لِم تستدعون الشر قبل الخير وما فائدتكم في ذلك؟ ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ من كفركم وتؤمنون ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦] ولا تؤاخذون بما سبق منكم، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا﴾ أي: تطرينا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧] وليس هذا جوابًا عن كلامه لكن بعثهم العناد الكامن على أن انتحلوا ذلك شبهة في مخالفته فقالوا: تشاء منا بك وبمن معك، فلم تكن علينا مباركًا ميمونًا فلا فائدة في اتباعك، وكأنهم استثقلوا بالناقة لمزاحمتها لهم في الماء، فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] أي: الشؤم والبركة عند الله وبقضائه يكونان وليس من جهتي شيء منذلك. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: معناه علم عملكم عند الله، قلت: لعله أخذه من قوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] والأشبه ما قلناه كقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] أي: تخطر لكم هذه الشبهة في مخالفتي لتفتتنوا وعن السعادة تبعدوا.

٢- ومنها محاورة لوط لقومه حيث قال منكرًا عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] أي وبعضكم يبصر بعضًا وتأتون في ناديكم المنكر، وكذلك كانوا يفعلون، ثم فسر الفاحشة بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] أي: تجهلون كيفية التأدب مع الله في خلقه، أو تجهلون أن ذلك يسخط الله عليكم، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] يعني: من اللواط ويخالفونكم فيه،

وليس هذا منهم بجواب له عما قال لهم لوط والاستثناء منقطع وهو كقولهم: لا حيلة له إلا البصر ولا زاد إلا الجوع، أي: إن كان هذا جوابًا فهو كان جوابهم.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل: ٥٩- ٦٤] وهذا تجهيل لهم: أي: آلهتكم التي تشركون خير أم الله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ويفعل كذا وكذا مما ذكر، فورد على هذا وهو أن كلامه مع المشركين المنكرين لإعادة الخلق فكيف يصح الاستدلال عليهم بما يمنكرونه وإلزامهم بما لا يعتقدونه؟ والجاب ما سبق من أن المعترض إذا منع الأصل أو غيره من مقدمات الحجة جاز إثباته بالدليل، وها هنا احتج عليهم بأنه يعيد الخلق، فإذا منعوه فقد أثبته في غير موضع كما سبق في أول الحج وذكر في آخر سورة يس والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة القصص

١- قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٧-٥١] الآيات.

أن نقصر إقامة الحجة البالغة عليهم لعاقبناهم على تكذيبهم – يعني أهل الكتاب – بالقرآن من غير دعاء بل بعلمنا فيهم، لكنا لو فعلنا ذلك وآخذناهم بعلمنا فيهم لكان لهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧] وإلا فما ذنبنا؟

تعذبنا قبل إقامة الحجة علينا.

فها نحن قد أزلنا علتهم وقطعنا عذرهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني محمدًا والقرآن ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ [القصص: ٤٨] من الآيات والتوارة فحيث لم يأت بمثل ذلك دل على أنه غير صادق. قال الله عز وجل مجيبًا لهم:﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص:٤٨] يعني موسى وهارون. وقال الحسن: محمد وعيسى – أو قال: موسى – أي: قد جاءكم موسى بما أدرتم ثم كفرتم وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٩٢] وكقوله: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] ﴿وَقَالُوا﴾ يعني قريشًا ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]، أي: بموسى ومحمد؛ لأنهم كانوا مكذبين بالنبوات، ويقال: إن الكلام في هذا الفصل كله مع كفار العرب وإن اليهود ينهوهم عن أن يقولوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، وحينئذٍ يتضح النقض عليهم؛ لأنهم سألوا مثل ما أوتي

موسى وهم كافرون بالجميع، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٤٩] الآية. أي: قل يا محمد: إذا كنتم ما آمنتم بالتوارة لما جاءتكم ولا بالقرآن لما جاءكم فهاتوا كتابًا من عند الله هو أهدى منهما حتى أتابعكم أنا عليه، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ [القصص: ٥٠] ويأتوا بما طالبتهم به ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ويعاندن الحق؛ لأنهم لا يهدون ولا يهتدون فهم كالدابة المشومة لا تمشي ولا تدع صاحبها يمشي. فإن قالت اليهود: هذا لا يرد علينا لأنا مؤمنون بالتوارة لم نكفر بها، بل ندعو إلى الإيمان بها، فالجواب من جهين:

أحدهما: أن أسلافكم القدماء كفروا بها وأنتم رضيتم بما فعلوا فكفرتم بواسطة رضاكم بكفرهم.

الوجه الثاني: أن أعلام محمد كانت فيهم فإن كنتم بدلتموها كفرتم بالتبديل، وإن لم تكونوا بدلتموها كفرتم بمخالفتها – والله أعلم بالصواب.

ومن سورة العنكبوت

١- مناظرة إبراهيم لقومه حيث قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦] ثم ذكر لهم الحجج والآيات والمواعظ، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وليس هذا جوابًا في حقيقة بل هو كما سبق في جواب قوم لوط في سورة النمل.

٢- ومنها مناظرة لوط لقومه حيث قال: ﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] يعني العقلاء وإلا فيقال: إن الحمار والخنزير يستعملان اللواط دون سائر الحيوان وهما سابقان في الوجود على قوم لوط ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قيل: سبيل النساء بإتيانكم الذكور، وقيل: تقطعون طرق الناس بالتعدي كما كان يفعل قوم شعيب، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أي: في مجالسكم ﴿الْمُنْكَرَ﴾ قيل: الضراط، كانوا يتضارطون في مجالسهم من غير استحياء، وقيل: اللواط كان أحدهم يلوط بصاحبه في المناس والناس يرونه مصطلحين على ذلك لا يرونه قبيحًا.

٣- قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] يعني: كذبوه وسؤال تعجيز سألوه. فإن قيل: ذكر ها هنا أنه لم يكن جوابهم إلا أن قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ وفي النمل ذكر أنه لم يكن جوابهم إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]، وهذا تناقض؛ لأنه حصر في الموضعين ما قالوه بالنفي والإثبات وأحد القولين غير الآخر، فالخطأ لازم في إحدى السورتين، فالجواب أن ليس الأمر كذلك؛ لأنه قد عرف من أسلوب القرآن أنه يطنب في مكان ويوجز في مكان، ويتوخى مقاصد القصص الكلية مع أنه ربما أخل ببعض جزئياتها في مكان دون مكان – ألا ترى أنه ذكر قصة نوح في سورة هود في نحو عشرين آية، ثم ذكرها في هذه السورة في آيتين، وقصة موسى أطال فيها في الأعراف والشعراء جدًّا ثم ذكرها في سورة الذاريات مع جماعة من القصص في الآية والآيتين والثلاث. فكذلك ها هنا اقتصر في كل موضع على بعض جواب قوم لوط على أن

القولين متلازمان عادة؛ لأنهم إذا سألوه العذاب تعجيزًا لزم ذلك التكذيب وإذا لزمه التكذيب لزمه بحكم العادة التعصب عليه وإخراج أهله من قريتهم.

وأيضًا فالقرآن كله كالجملة الواحدة فالمذكور منه متفرقًا في مواضع كالمذكور في موضع واحد، فكأنه ذكر جوابهم في السورتين في كل واحد منهما.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢] الآية. هذه مجالدة إبراهيم في قوم لوط وقد سبقت مشروحة في سورة هود.

٥- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] قد ذكر هذا السؤال في غير موضع من القرآن وقررناه فيما سبق، وتقريره أنهم قالوا: لو كان صادقًا لجاءنا بآية تصدقه لكن لا فلا، فأجاب الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ليست إلي، وكان هذا قبل تواتر آياته عليه السلام، وهذا جواب بفساد الوضع والاعتبار؛ لأن سؤالهم إلزام ما لا يطاق بالنسبة أن النبي عليه السلام، ثم أجابهم بمنع انتفاء اللازم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] أي: سلمنا أن سؤالكم صحيح لكن لا نسلم أنه لم يأت بآية، فهذا القرآن آية بل آيات. فإن قيل: اكتفاؤهم بالقرآن في تصديقه فرع على تصديقهم آية من عند الله وهم كانوا يمنعون الأصل فكيف يلزمهم الفرع؟ قلنا: القرآن شاهد لنفسه بأنه من عند الله لتحديهم به وعجزهم عن معارضته – والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الروم

١- قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦]، ذكر كفرهم ثم احتج عليهم بقوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى آرخ ثماني آيات بقوله: (ومن آياته... ومن آياته...) بعدة من الحجج منها إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي وهو شاهد للبعث إذ ليس هو إلا استخراج مزاج معتدل من مزاج بارد يابس وهو التراب فهو كاستخراج الحي من الميت. ومنه إحياء الأرض بعد موتها كما سبق تقريره. ثم صرح بالقياس عليه فقال: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، ومنها خلقه لهم من تراب فكذلك يمكنه إعادته لهم من التراب، وهوت كقوله فيما بعد ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، ومنها أن خلق لهم من أنفسهم أزواجًا ولعله إشارة إلى اشتقاق حواء من آدم من غير ولادة ولا نسل وهو معجز عندكم لا تقدرون عليه فكذلك إحياء الموتى أو يكون هذا من باب تذكير النعمة استدعاءً للتوحيد ولهذا قال: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ومنها خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق النسا ونمن خلق الأكبر فهو على خلق الأصغر أقدر. ومنها اختلاف الألسنة والألوان مع تساويهم في ماهية الإنسانية وفي ذلك رفق بهم ولطف لهم. ومنها منامهم أي نومهم بالليل والنهار وابتغاؤهم من فضله فيهما وإن كان الأصل في النوم الليل وفي العاش النهار، وفي ذلك امتنان عليهم بالنعمة وإقامة الحجة على البعث، وذلك لأن النوم أخو الموت ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون، والموت نوم طويل والنوم موت قصير، اليقظة من كل منهما بحسبه، ولهذا يرى الإنسان في منامه كثيرًا من أحكام الآخرة وغالم الغيب. وبالجملة بين النوم والموت قدر مشترك وهو التفات النفس إلى عالمها لكن التفاتها في النوم مع تعلقها بالجسد وفي الموت مع انقطاع تعلقها عنه وتخلصها منه باكلية، ولهذا قال عيسى ابن مريم في وعظه لبني إسرائيل: كما تنامون تموتون وكما تستيقظون تبعثون، وذلك استعير للقبر اسم المرقد والمضطجع في قوله عز وجل: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، وفي قولهم: مهد لنفسك قبل المضطجع، أي: تزود قبل الموت، وقد علم أنه لا بد بين

المستعار والمستعار منه من علاقة وهي ها هنا ما ذكرنا من التفات النفس وغيبة الحس، ومنها سياسته لهم بالترهيب والترغيب حيث يريهم البرق خوفًا وطمعًا ثم يسقيهم الغيث وهذا امتنان، وقوله: ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤] وهو احتجاج على البعث وامتنان أيضًا بحثول الخصب وكثرة الرزق، ومنها إقامة السموات والأرض وإمساكها بأمره ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، فإن منعوا هذا فالدليل عليه بالمرصاد وقد دل على البعث بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] يعين: بالنسبة إلى إدراككم وتفاوت مقدوراتكم، وإلا فمقدوراته عز وجل كلها سواء إذ هي بين الكاف والنون إذا أراد شيئًا قال له: كن ! فيكون.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨]، أي: لو جاز أن يشرك الله في ملكه بعض مخلوقاته وهي معبوداتكم دونه لجاز أن يشرككم عبيدكم في أملاككم لكن أنتم لا تجيزون ذلك في عبيدكم فكيف تجيزونه فيما بين الله ومخلوقاته؟ وهو قياس واضح كقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ [النحل: ٥٧] على ما سبق في إلزامهم فيه، والله عز وجل أعلم بالصواب.

وليس في سورة لقمان شيء مما نريد.

ومن سورة السجدة

١- استدلالًا على البعث قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، ووجه الاستدلال به واضح وقد سبق.

وسورة الأحزاب خلو مما نريد.

ومن سورة سبأ

١- قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، فرد الله عليهم، وقال: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣]، أي: هو يعلم وقت مجيئها ويعلم الجواهر المفردة التي تنحل إليها الأجسام فيجمعها بقدرته ثم يعيدكم خلقًا جديدًا.

٢- ومنها محاورة المستضعفين والمستكبرين في النار إذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]، يعني: ولكن منعتمونا عن الإيمان بغروركم، ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ أي: ما صددناكم ﴿عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ على لسان الأنبياء ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، فرد المستضعفون عليهم. وفصلوا السبب بقولهم: لستم براء من إضلالنا ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كان منكم مكر في الليل والنهار بنا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ [سبأ: ٣٣] يعني: الجميع أسروا الندامة على الكفر ولم يظهروها خوف شماتة العدو إبليس وجنوده جميعًا.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] يعني الكفار كأنهم عللوا نفي تعذيبهم بكثرة أموالهم وأولادهم فأجيبوا أولًا بفساد الاستدلال؛ لأن العلة النافية للعذاب عنهم تجب أن تكون من فعلهم وليس الحكم المذكور فرعيًا حتى يكتفي فيه بالأمارة كيف كانت وكثرة أموالهم وليس الحكم المذكور فرعيًا حتى يكتفي فيه بالأمارة كيف كانت وكثرة أموالهم ليست من فعلهم بل الله يرزق العالم فيبسط الرزق من لمن يشاء ويقدر.

وثانيًا: بالقدح في مناسبة العلة للحكم بقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبأ: ٣٧] أي: كثرة الماء والولد لا تناسب في نفي العذاب حتى يضاف إليه إنما المناسب له الإيمان والعمل الصالح، ثم علتكم عديمة التأثير بدليل انتفاء العذاب عن كثير من الفقراء.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يعني: المشركين ﴿جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، هذه مقابلة تحقيق وتوبيخ للكفار

شبيهة بقوله عز وجل للمسيح: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولا شك أن الكفار كانوا مختلفي الأهواء بعضهم عبد الأصنام وبعضهم النجوم والقمر والشعرى، وبعضهم الملائكة، وبعضهم الجنس؛ لأنهم كانوا يقولون: إن الله عز وجل وتنزه عما يقولون – صاهر الجن فكانت الملائكة بناته منهم، كما ذكر في آخر الصافات، فإذا كان يوم القيامة عرفهم خطأهم في عبادة غيره باعتراف الملائكة أنهم لم يرضوا بعبادة الكفار لهم وأنهم ليسوا أهلًا لذلك بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾، ثم يحيل الملائكة على الجن بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ثم اختلف في عبادة الكفار للجن، فقيل: طاعتهم إياهم في الوسوسة، وقيل: كان المسافر من العرب إذا نزل واديًا، قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر ما فيه، وهو نوع من استمناعهم بالجن المذكور في سورة الأنعام وهو نوع من الإشراك بالله عز وجل إذ لا معاذ إلا به، وظاهر القرآن يدل على أن عبادتهم للجن هي العبادة التي يستحقها الله عز وجل وهو معنى ما ذكر.

وسورة الملائكة خلو مما نريد.

ومن سورة يس

١- دليلان على إثبات البعث على منكريه: أحدهما قوله عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ثم امتن عليهم بقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]، الثاني قوله: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، احتج على ذلك بحجج:

إحداها: هذا وهو قياس الإعادة على الإنشاء.

الثاني: إخراج النار من الشجر الأخضر مع أن بينهما غاية التضاد والتباين، إذ النار حارة يابسة والشجر بارد رطب، فكذلك يجوز أن يخرج الحيوان الحار الرطب أو المعتدل المزاج من التراب البارد اليابس.

الثالث: خلق السموات والأرض فإنه أكبر من خلق الناس، فالقادر عليه أقدر على ما هو أصغر منه، وقد سبق في أوائل السورة ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ﴾ [يس: ٣٧] وهو استخراج أحد الضدين من الآخر، فهو في الاستدلال على البعث كالاستدلال بإخراج النار من الشجر، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الصافات

١- قصة إبراهيم مع أبيه وقومه إذ قال لهم: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥] وهي شبية بما سبق في سورة الأنبياء، وسورة الشعراء.

٢- ومنها رد دعوى البنات لله على الكفار بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩] أي: كيف ترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم؟ أي: هذا تناقض منكم سبق تقريره، ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] أي: أنتم لم تشاهدوا خلق الملائكة إناثًا أو ذكورًا حتى تحكموا به، ثم نسبهم في ذلك إلى الإفك والكذب، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، ثم أنكر عليهم وبكتهم بقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣] أي: كيف يختار الأدنى على الأعلى والناقص على الكامل؟ ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٤] إنكارًا لحكمهم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات:١٥٥] أي: تنظرون وتعتبرون وللصواب تستخرجون؟ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥٦] أي: حجة على ما تقولون: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ أي: حجتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٧] استدعاء تعجيز، أي: لا سبيل لكم إلى الحجة على ذلك، ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن الكفار قالوا: إن الله صاهر الجن فالملائكة بناته من الجن، قلت: فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] أي: للحساب – وإن منهم المعذب، ولو كانوا أنسباءه لما حاسبهم ولا عذبهم، وهذا كقوله لليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، ثم نزه نفسه عما يقولون بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة ص

١- قولهم: ﴿أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وهو سؤال الترجيح بلا مرجح أجاب الله عز وجل عنه بقوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ص: ٩، ١٠]، أي: ليس ذلك ترجيحًا بلا مرجح بل أنا المرجح وخزائن الرحمة عندي لا عندهم والملك لي لا لهم أخص من شئت برحمتي، فإن كانوا لا يرضون ذلك فليجهدوا و ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص:١٠] الحبال ونحوها مما يوصلهم إلي فليخاصموني على ذلك ! تعجيزًا لهم إذ ليس قادرين على ذلك.

٢- ومنها محاورة الخصمين لداود حتى ألزماه الحجة على لسان نفسه وهي مشهورة.

٣- ومنها تخاصم أهل النار فيها بقولهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ [ص:٦٠]، أي: أنتم أضللتمونا على نحو ما في سورة سبأ.

ومنها اعتراض إبليس على ربه عز وجل على ما مر في الأعراف، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة الزمر

١- قوله عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾، أي: بل اتخذوا، ثم أجاب عن ذلك بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣] أي: أتتخذونهم وإن كانوا بهذه الصفة؟ إن قلتم: لا، فقد فعلتم فليزمكم الرجوع عنهم، وإن قلتم: نعم ! فذلك سفه وكفر؛ لأن الشفيع يجب أن يكون عاقلًا يملك تحصيل مايشفع فيه بجاهه أو قدرته، وهذا جواب عن قولهم أول السورة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

٢- ومنها حكايته عن الكافر حيث يقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، أي: ولكن الله لم يهدني، فيجيبه بقوله: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزمر: ٥٩]، أي: قد هديتك فكفرت، والمراد بالهدى ها هنا الإرشاد المجرد لا الهدى الذي يصحبه التوفيق والحراسة من قواطع الطريق إذ من يحصل ذلك له لا يضل.

٣- ومنها محاورة خزنة جهنم للكفار حيث يقولون لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فيقولون: ﴿بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] أي: سبق فينا علم الله فكفرنا، كقولهم في موضع آخر: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩]، فإذا اعترفوا بالكفر والتكذيب ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧٢]، يعني: فأنتم الجناة على أنفسكم لم يجن عليكم أحد ولم يظلمكم، وهذا من باب تسليم النتيجة بتسليم المقدمات: كان الخزنة قالوا للكفار: ألم ينذركم الرسل؟ قالوا: بلى لكن كذبنا، قالوا: فأنتم قد أنذرتم وكفرتم، وكل من أنذر فكفر يدخل أبواب جهنم، فأنتم فادخلوا أبواب جهنم ! وهو يقاس من الشكل الأول بين بذاته، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة غافر

١- فيها محاورة موسى لآل فرعون وليست على الطريقة الجدلية، أما مؤمن آل فرعون ففي محاورته لهم ضرب من الجدل حيث قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وهذا تقسيم صحيح، أي: لا يخلو هذا الرجل إما أن يكون كاذبًا أو صادقًا، فإن كان كاذبًا فوبال كذبه عائد عليه واستريحوا أنتم من التعب، وإن كان صادقًا أصابكم ما يعدكم به فتتأذون ولا خير لكم في ذلك.ثم قال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] يعني: استديموا ما أنتم فيه من النعمة بترك الشر والتعرض لبأس الله فإنكم لا تقاومونه. فعارضه فرعون برأيه الساقط وقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ يعني من مخالفة موسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] بزعمه، ولقد بتبين خطأؤه حين هداهم إلى سبيل البحر فغرقوا فيه. ثم أعاد المؤمن تخويفه وتحذيره لهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢] يعني يوم القيامة، ثم ذكرهم خطأهم في يوسف حيث شكوا فيما جاءهم به وكان الصواب في اتباعه، أي: فكذلك موسى، ثم دعاهم إلى اتباعه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] وإلى الإعراض عن الدنيا إلى الآخرة بقوله: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] وكل هذا يقصد به ردهم عما هم عليه إلى غيره وهو جدل على الحقيقة.

٢- ومنها تحاج الضعفاء والمستكبرين في النار، إذ يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] لأن شأن الرئيس المتبوع أن ينفع تابعه ويحمل عنه بعض ضرره فلم لا تفعلون معنا كذلك؟ أو إن لم تغنوا عنا شيئًا فما فائدة رئاستكم علينا؟ فأجابوهم ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]، أي: باستوائنا فيها.

٣- ومنها محاجة خزنة جهنم لأهلها حيث يقولون: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] فتقول الخزنة: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠] أي: لستم إذن أهلًا لتخفيف العذاب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة فصلت

١- حكاية محاورة الجوارح لأصحابها في قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا﴾ يعني الكفار: ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] يعني الجلود والأعضاء ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، أي: نحن مجبرون على الشهادة لا مختارون فنحن معذورون لا لوم علينا وأنتم تلومونا بغير حق.

٢- ومنها الاستدلال على بعث الموتى بإحياء الأرض في قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وهي شبيهة بالتي في أول الحج.

وليس في سورة الشورى شيء مما نريد.

ومن سورة الزخرف

١- قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]، هذا إنكار على من قال: الملائكة بنات الله،ثم أبطل قولهم بقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦] وتقريره ما سبق في قوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقوله: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣، ١٥٤]، ألزمهم التناقض بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]، يعني: إنكم تدَّعون تعظيم الله ثم تضيفون إليه ما تأنفون منه لأنفسكم، ثم أكد وجه الإنكار في ذلك قوله: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] أيتخذ، أو أتضيفون إليه من ينشأ في الحلية وهو مظنة الترفه والعجز وضعف البطش، وعدم البيان في الخصام، وإنما ينبغي أن يتخذ من الولد من إذا قاتل قاتل بجنان وإذا نطق نطق ببيان، ثم أنكر عليهم جعل الملائكة إناثًا بقوله: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] وهو كقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، ثم توعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، والكلام على هذه كالكلام على نظيرها في الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقد قال ها هنا: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون في أخبارهم باعتقادهم تأثير مشيئة الله في ضلالهم وإنما يقولونه بألسنتهم جدلًا وعنادًا.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وهو سؤال ترجيح بغير مرجح، أي: لِمَ كنت أولى بنزول القرآن عليك من غيرك؟ وقد كان عظيم القريتين أَوْلى به منك، والقريتان مكة والطائف وعظيم مكة الوليد بن المغيرة وعظيم الطائف عروة بن المسعود الثقفي، وتقدير الآية على هذا:

على رجل عظيم من كل واحدة من القريتين، فهما رجلان وإنما وحد اللفظ اعتبارًا بالجنس، فأجاب بمنع الترجيح بلا مرجح حيث قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: ليس الأمر إليهم في ذلك بل إلي فأنا أخص برحمتي وكرامتي من شئت، وليست العظمة المستحق بها ذلك ما تزعمون من الرئاسة والوجاهة والنباهة، إنما هي الطاعة والمعرفة، والله أعلم بالصواب.

ومن سورة الدخان

١- قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الزخرف: ٣٤، ٣٥] أي: بمبعوثين، ثم سألوا سؤال تعجيز فقالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦] أي: إن كنا نبعث كما تقولون في الآخرة فأرونا آباءنا الآن ليصح ما تقولون ولستم أيها الرسل قادرين على ذلك، فتوعدهم الله عز وجل على هذا التكذيب بالهلاك بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: أكرم وأقوى ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧] أي: بعلة إجرامهم وأنتم مجرمون فسنهلككم. ثم أجاب عن شبهتهم بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] أي: لو لم يكن للناس معاد لكان خلق السموات والأرض عبثًا ولعبًا؛ لأن ما في الدنيا من لذة وألم لا يكافي ما فيها من طاعة ومعصية، والعدل يقتضي مكافأتهما بما يساويهما، ثم صرح فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠] كقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧] أي: موعد نجمعهم فيه. وحاصل الجواب يرجع إلى منع ما زعموه من إنكار البعث وتقريره بما ذكر، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الجاثية

١- قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٤ -٢٥] وهو كالسؤال في السورة قبلها، وأجاب الله عز وجل عنه بمنع دعواهم الاستمرار بعد الموت على العدم ونفي المعاد بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: في النشأة الأولى من النطف ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ يعني هذه الموتة الأولى بخروج الروح من الجسد ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، أي: لا يدعكم بعد الموت مستمرين على العدم بل يحييكم بعده ويجمعكم إلى يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الأحقاف

١- قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] روى عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ قال: قال ذلك ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن، فلو كان خيرًا ما سبقنا إليه فلان وفلان، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]، قلت: قد بين قتادة أن جواب هذا السؤال ما ذكر وهو صحيح لكنه ليس مذكورًا في السورة بل في غيرها، والقرآن كالجملة أو كالكلمة الواحدة وهو متفق فيما يحكى فيه سؤالًا وجوابًا. فالجواب في موضع يكون جوابًا في غيره، قلت: لكن المعهود من أسلوب القرآن على ما عرف بالاستقراء غالبًا إن لم يكن مطلقًا أن جواب السؤال يتعقبه أو يقرب منه، والذي أقوله أنا أن جواب هذا السؤال عقيبه على عادة القرآن في أسلوبه وبيانه. إن النزاع ها هنا مع اليهود؛ لأنه في سياق قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾، يعني عبد الله بن سلام نص عليه قتادة وغيره ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، أي: فأنتم إذن ظالمون ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأحقاف: ١١] يعني اليهود، وإن كان لفظ الكفار أعم فهو من باب العام يراد به الخاص، وإذا ثبت هذا فقد أجابهم بوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]. وتقريره أنه قد قال في تمام الآية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١]، يعني أن علة كفرهم به عدم اهتدائهم به، وقد أنزلنا من قبل القرآن كتاب موسى التوراة وكفر بها كثير من بني إسرائيل وغيرهم، وهي مع ذلك حق عندكم فقد وجدت العلة، وهي عدم الاهتداء من أولئك الذين كفروا بها ولم يوجد المعلول عندكم وهو كونها إفكًا فيكون هذا نقضًا على ما علل به، هذا إن كانوا هم عللوا بذلك، وإن كان قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كلامًا مبتدأ من الله – أي: ما يمنعكم من تصديقه إلا عدم الاهتداء به – لم يلزمهم هذا النقض فيكون الجواب بالوجه الثاني وهو قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢]، وهو بمنع ملازمتهم حيث قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وتقريره: لا

نسلم الملازمة بل هو خير وقد سبقتم إليه، ودل على أنه خير بكونه مصدقًا لكتاب موسى، وكتاب موسى حق والمصدق للحق حق فإذن هو خير قد سبقتم إليه، فتلخص من هذا أن جواب سؤالهم إما بنقض دعواهم أو بمنع الملازمة كما بينا، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومنها محاورة أخي عاد وهو هود لهم بمعنى ما سبق في الأعراف.

وليس إلى آخر الحجرات شيء مما نريد.

obeikandl.com

ومن سورة قاف

١- قوله عز وجل حكاية عن الكفار: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣]، هذا إنكار منهم للبعث والمعاد، فأجاب الله عز وجل بالدليل على إمكانه ووقوعه بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٤-٥]، ونظم الدليل عن هذا أن يقال:إعادة الأجسام ممكن أخبر به الصادق، وكل ممكن أخبر به الصادق واقع، فإعادة الأجسام واقع، أما أنه ممكن فدل عليه بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] إشارة إلى إثبات الجوهر الفرد وانحلال الأجسام إليه وأنه سبحانه عالم بأعيان تلك الأجزاء وأماكنها من الأرض ومحالها، من الجسد الذي انحلت إليه وحينئذٍ يمكن جمعها وإعادتها إلى محالها كما كانت، ولا يعني بإعادة الأجسام إلا هذا مثاله تقريبًا من انخرط من يده عقد فتبدد خرزه وهو يعرف تفاصيل تلك الخرز وأماكنها، من سلكها فالتقطها فأعادها كما كانت، فالعقد الآن هو هو قبل انخراطه لا فرق بينهما إلا باختلاف الزمان، لكن الزمان ليس معتبرًا في الجسم جزءًا ولا شرطًا بالذات ولا بالعوض، إنما هو ظرف يمكن انفصاله وانفكاك الجسم عنه. وأما أن الصادق أخبر به فدل عليه بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥]، أي: قد أخبرناهم بالبعث ونحن صادقون في ذلك محقون، لكنهم كذبوا أخبارنا الحق، والدليل على صدق المخبرين بالمعاد ظهور المعجزات على أيديهم وذلك يفيد صدقهم.

والمنكرون للمعاد الجسماني من الفلاسفة وغيرهم ينازعون في المقدمتين – أعني إمكان إعادة الأجسام وصدق المخبر به- بناءً على إنكار وجود المعجزات على أيديهم أو على أن المعجز لا يفيد الصدق، مع أن جمعًا من الفلاسفة صدَّقوا بالنبوات لكن لهم فيها طريق خبيث عند التحقيق ينافي رأي الملتين.

٢- ثم استدل الله عز وجل على ذلك بشواهد أخر في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ

نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١]، فاستدل بقدرته على خلق السموات والأرض على قدرته على البعث، وقاسه على إحياء الأرض بعد موتها، ثم قاس الإعادة على الابتداء بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] أي: كما لم يعجزنا إنشاء الخلق لا يعجزنا إعادته، ولكن الكفار التبس عليهم ذلك وشكوا فيه بالإضافة إلى قدرتهم وعقولهم، وهو اعتبار فاسد إذ الأحكام الإلهية لا تعتبر بغيرها.

وليس في الذاريات شيء مما نريد.

obeikandl.com

ومن سورة الطور

١- وقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، هذا جواب عن قولهم: إن القرآن من كلام محمد هو اختلقه، فأجيبوا بأن ما كان من كلام البشر يمكن للبشر أن يأتوا بمثله، فإن كان القرآن كلام محمد كما زعمتم أمكنكم أن تأتوا بمثله لكن لا فلا.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٦] استدلال على منكري الصانع وقد قدمنا أن كفار العرب كان بعضهم مشركين وبعضهم معطلة بالكلية. وتقرير الحجة من هذه الآية أنه لا يخلو إما أن يكون خلقوا من غير شيء أي بغير خالق أو أنهم خلقوا أنفسهم وخلقهم غيرهم،والأول باطل إذ مخلوق بلا خالق لا يعقل، والثاني باطل إذا لشيء لا يؤثر في إيجاد نفسه لاستلزام ذلك كونه موجودًا معدومًا في حالة واحدة. فتعين القسم الثالث ولتعينه عقلًا لم يذكر في الآية؛ لأن أسلوب القرآن الاكتفاء بالدلالة بأي شيء حصلت وهو طريقة العرب. وإذا ثبت أن غيرهم خلقهم فذلك الغير هو الإله القديم الذي يدعو إليه الأنبياء عملًا بموجب دليل الدور والتسلسل كما سبق.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٧]، هذا جواب سؤالهم بلزوم الترجيح بلا مجرح حيث قالوا في غير موضع: أي شيء خصه علينا بالرسالة؟ فأجاب بأن الله عز وجل خصه بها ورجحه عليكم وعنده خزائن الرحمة يختص بها من يشاء ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ أي المسلطون القاهرون بخيث يفعلون ما يشاءون من خفض ورفع وعطاء ومنع، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

٤- ومنها قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، هذا جواب عن قولهم: الملائكة بنات الله، وقد سبق تقريره، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة النجم

١- قوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، قسمة جائرة حيث تخصون من هو أشرف منكم بأدنى مما تختارونه لأنفسكم وتستأثرون عليه بالكامل وتعطوه الناقص، وهو جواب عن مثل السؤال قبله، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة القمر

١- قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥]، هذا تكذيب منهم له وإنكار لرسالته بشبهة سؤال الترجيح بلا مرجح كما عرف. وأعرض عن جوابه ها هنا لظهوره وتكرره في غير موضع، وإنما أجاب عن قولهم: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ﴾ [القمر: ٢٦] أي: ليس هو الكذاب بل أنتم الكذابون في تكذيبه وستعلمون غدًا، يعني يوم القيامة.

٢- ومنها قوله عز وجل لكفار قريش وغيرهم من العرب: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. أي: ما الذي يغركم بالله حتى تجترئوا عليه فإنكم لستم خيرًا من قوم نوح وهود وصالح ولوط وموسى حتى تطمعوا في النجاة دونهم، وهو كقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الدخان: ٣٧]، وليس لكم في كتب الله براءة من عذابه كقوله لليهود: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠] وليست كثرتكم مما تنتصرون به من الله، إذ ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] إذ جمكم سيهزم وتولون الدبر.

٣- ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] هي رد على المكذبين بالقدر، قال عبد الرزاق: أخبرنا داود بن قيس قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: كنت أقرأ هذه الآية فلا أدري من عني بها حتى سقطت عليها: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ قال: هم المكذبون بالقدر، قلت: لما نفوا القدر وقالوا: لا قدر والأمر أنف، رد عليهم بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي: كلمة واحدة وهي قوله: كن ! ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠] أي: إذا أردنا شيئًا قلنا له: كن ! فيكون في أسرع ما ينبغي.

ولا شيء مما نريد إلى.

سورة الواقعة

١- فمنها قوله عز وجل: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، هو إنكار منهم للبعث فأجيبوا بإثباته حيث قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ثم يحتمل أنه اكتفى بالمنع والرد المجرد؛ لأنه كاف في بطلان دعوى المدعي ما لم يأت بحجة، ويحتمل أن قوله بعد ذلك ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ -٦٢]، هو احتجاج عليهم ومستند لمنع دعواهم فإنهم لما ادعوا بقاءهم بعد الموت على العدم أبدًا من غير بعث منع دعواهم بدعوى البعث ثم أسند المنع بما ذكر.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]، هذا استدلال على من أنكر قدرة الله عز وجل عليه وأنه مملوك له مقهور تحتد عظيم قدرته، وتقريره: لو لم تكونوا مملوكين مقهورين لأمكنكم رد أرواحكم إذا صارت إلى الحلقوم لكن لا فلا، وقيل: معنى ﴿مَدِينِينَ﴾ محاسبين مجازين بأعمالكم ويحتاج تقريره إلى بسط، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة الحديد

١- قول المنافقين للمؤمنين: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾فيمنعون ذلك ويقال لهم: ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] فلا نور لكم عندنا. فيقولون: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] أي: على الإيمان في الدنيا وتحت رواق الإسلام، فيقول المؤمنون ﴿بَلَى﴾ كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد:١٤]، فيجيبونهم بالفرق أي: أنتم بدلتم ونحن لم نبدل، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة المجادلة

١- قوله عزو جل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أبي إسحاق في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ قالت: نزلت في أمرأة اسمها خويلة، وقال معمر عن عكرمة أيضًا إن اسمها خويلة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن صامت فقالت: إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما أراك إلاَّ قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ"(١)، وهو حينئذٍ يغسل رأسه، فقالت: انظر في شأني – جعلني الله فداك يا نبي الله ! فجعلت تجادله، ثم حول شقه الآخر ليغسله فتحولت من الجانب الآخر فقالت: انظر – جعلني الله فداك يا نبي الله – في شأني ! فقالت الغاسلة: اقصري عن حديثك ومجادلتك يا خويلة ! أوما ترين رسول الله قد يريد يوحى إليه؟ فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ حتى بلغ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣] قال قتادة: حرمها ثم يريد أن يعود لها يطأها ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ حتى بلغ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٣].

قلت: المجادلة في الآية مرسلة مجملة والمذكور من المرأة فيها ليس جدالًا وقد سماها الله عز وجل مجادلة، فإن كان جدالها في نفس الأمر حقيقيًا بأن كان النبي عليه السلام في شأن زوجها على أمر فأرادت صرفه عنه فهو مما أردنا ذكرها، وإن كان جدالًا مجازًا لم يضرنا ذكره مع تصريح الآية بلفظ الجدال، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ثم لا شيء مما نريد إلى.

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٠٧، رقم ١١٣).

سورة المدثر

١- فمنها قوله عز وجل: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٧]، وهو الوليد بن المغيرة، ويسمى فيلسوف قريش ويدل عليه تعمقه ها هنا ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ قال الله عز وجل: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ١٨-٢٦] أي: إنه أخطأ في تقديره ونظره وظهر عناده باعترافه أن له حلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر، سأصليه سقر على عناده وكفره وارتداده عما يوجب الإيمان بعد ظهوره.

وحكى لي الثقة عن الشيخ بهاء الدين ابن النحاس النحوي بالديار المصرية في أواخر المائة السادسة من الهجرة المحمدية صلوات الله على من نسبت إليه، أنه لم أنشد في صفة بعض المغفلين[1]: [الكامل]

لو قيل كم خمس وخمس لاغتدى ... يومًا وليلتَهُ يعُدُّ ويحسُبُ
ويقول: معضلة عجيب أمرها ... ولئن هديت لها لأمري أعجب
حتى إذا حدثت يداه وعورت ... عيناه مما قد يخط ويكتب
أوفى على شرف وقال: ألا اسمعوا ... ويكادُ من فَرَحٍ يُجَنّ ويسلب
خمسٌ وخمسٌ سِتَّةٌ أوْ سبعةٌ ... قولانِ قالهُما الخليلُ وثعلَبُ

فتعجب الحاضرون من هذا واستغربوه، فقال الشيخ بهاء الدين: مم تعجبكم؟ قد ذكر في القرآن مثل هذه الحكاية، ثم تلا هذه الآيات: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ قال: ألا ترونه أمعن النظر في المقدمات وأطال زمن التقدير وكرره، ثم قال: فأخطأ حيث قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، قلت: هذه قوة جيدة في تخيل المعاني الكلية الجامعة بين الوقائع الجزئية.

---

(١) الأبيات لأبي الحسن الرازي في البليد.
انظر: حماسة الظرفاء ١/١٢٦، وغرر الخصائص الواضحة ١/١٢٠.

٢- ومنها قوله عز وجل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، فقال الكفار: لِمَ خصهم بهذا المقدار من العدد وماذا أراد الله بهذا مثلًا؟ أي: ليس هذا بصحيح، فأجاب عنه بمثل ما أجاب به عن نظيره في سورة البقرة من إضلال من يشاء وهداية من يشاء، والمثلان متغايران كما قد بينا هنا وهناك، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ومن سورة القيامة

١- قوله عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤] هذه حكاية قول منكري البعث ذكرها وردها بقوله: بلى نجمع عظامه قادرين على ذلك، ثم برهن عليه في آخر السورة بالقياس على النشأة الأولى حيث قال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، اللهم بلى وآمنت، والله عز وجل أعلم بالصواب.

ثم لا شيء مما نريده إلى

سورة النازعات

١- فمنها قوله عز وجل: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] استدلالًا على الإعادة بخلق السموات والأرض؛ لأنه أكبر من خلق الناس على ما صرح به في سورة غافر، والقادر على الخلق الأكبر هو على خلق الأصغر أقدر، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ومن سورة عبس

١- قوله عز وجل: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس:١٧- ٢٢] يقرب أن يكون استدلالًا على منكري البعث بالقياس على النشأة الأولى، وإن احتمل توبيخ الإنسان بكفره مع الإنعام عليه بذلك بدليل قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، ثم وبخه ثانيًا بقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢] ويجوز أن يكون المراد الأمرين الاستدلال والتوبيخ.

ثم لا شيء مما نريد إلى

سورة الطارق

١- فمنها قوله عز وجل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]، هذا استدلال على الإعادة بالإنشاء بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨].

ثم لا شيء مما نريد إلى

سورة الفجر

١- فمنها قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] يصف الإنسان بالظلم وأنه يفرح للسراء ويترح للضراء، وأن ذلك عنده مما يفرح له أو يترح، فرد الله عز وجل عليه بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، أي: ليس ما ذكر مما يفرح له أو يترح، وإنما الذي يفرح له الطاعات كإكرام اليتيم والتحاض على طعام المسكين والزهد في الدنيا، والرغبة في الأخرى، والذي يترح له ضد ذلك. وقيل هذا ورد على جهة الرد لزعم الكفار حيث كانوا يعتقدون أن من بسط الله عز وجل له الرزق فقد أكرمه ومن ضيق عليه الرزق فقد أهانه. فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم وإنما الكريم عند الله عز وجل من أطاعه بفعل ما ذكر وغيره من الطاعات وأنتم

لا تفعلون ذلك فإنكم لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين، بل تأكلون التراث وتحبون المال، ولا تفكرون في المآل.

ثم لا شيء مما نريده إلى

سورة الكافرون

١- وهي جدل ورد على الكفار بأجمعها: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: ٢-٤]، وقد يقال: إنها ليست جدلًا بل إخبار عن عدم الموافقة من الطرفين، إذ غايتها مناقضة لغاية الجدل إذ غاية الجدل رد الخصم عما هو عليه، وفي هذه السورة يقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويجاب عنه بأن هذا على جهة التهديد والوعيد بعد الإياس منهم وإلا فهو في الحقيقة يقصد ردهم عما هم عليه، والله عز وجل أعلم بالصواب.

واعلم أني إنما ذكرت في هذا الباب ما كان ظاهرًا مشهورًا من الوقائع الجدلية والقضايا الاستدلالية، وإلا فالقرآن إذا تؤمل وجد فيه من ذلك أكثر مما ذكرت؛ لأنه ورد معجزًا بجملته وتفصيله، وشأن المعجز مناقضة الخصم والدلالة على خلاف دعواه فاعلم ذلك.

وربما أخللت من مشهور ذلك بشيء ما إما غفلة أو كسلًا أو اكتفاءً بنظير له تكرر ونحو ذلك من الأسباب.

فلنعدل الآن إلى: